# أحوال الساحل الشرقي لأفريقيا عند وصول البرتغاليين للمنطقة (من خلال روايات المؤرخين البرتغاليين)

دكتور
إبراهيم محمد حامد سليمان
أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي
كلية دار العلوم جامعة المنيا

**الملخص:**

يأتي هذا البحث لدراسة منطقة الساحل الشرقي لأفريقيا في فترة مهمة من تاريخه، وهي نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وبدايات القرن التالي، وهي الحقبة التي شهدت وصول البرتغاليين للمنطقة بقيادة فاسكو دي جاما، من أجل بلوغ الساحل الهندي والسيطرة على تجارته من ناحية، ولضرب اقتصاد دولة المماليك والقضاء على شبكة التجارة الإسلامية في مياه الحيط الهندي من ناحية أخرى.

لقد كان الساحل الشرقي في ذلك الوقت يتشكل من مجموعة من المدن التي استقر فيها الإسلام منذ وقت بعيد، وكان معظم حكامه وسكانه السواحيليين يدينون بالإسلام، فضلا عن الجاليات الإسلامية الكبيرة التي كانت تقصد هذه المنطقة وتستقر فيها لوقت طويل من أجل ممارسة التجارة، وهو الأمر الذي حقق ازدهارا تجاريا كبيرا لتلك المدن. كل هذا أثار دهشة البرتغاليين وجعلهم يسعون للسيطرة على تلك المدن وعلى تجارتها وطرد المسلمين منها.

في هذا السياق تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على تاريخ الساحل الشرقي لأفريقيا في تلك الفترة الزمنية، وذلك من خلال الحديث عن أوضاع المدن السواحيلية وأحوال سكانها وحكامها وتجارتها عند مقدم البرتغاليين للمنطقة. وقد اعتمدت الدراسة على المعلومات والروايات المستقاة من المصادر البرتغالية المعاصرة، التي تكاد تكون- في اعتقادي- المصادر الوحيدة التي تناولت بشيء من التفصيل تاريخ هذا الساحل عند وصول البرتغاليين مع نهاية القرن ٩هـ/١٥م. فليس بين أيدينا- للأسف- مصنفات عربية تتحدث عن تاريخ شرق أفريقيا في تلك الفترة الزمنية المهمة، كما كان الحال خلال الفترات السابقة.

**الكلمات الرئيسة:**

شرق أفريقيا – السواحيليون – البرتغاليون – التجار المسلمون – الذهب الأفريقي

**Conditions of the East Coast of Africa upon the arrival of Portuguese (Through the accounts of Portuguese historians)**

This research comes to study the region of the eastern coast of Africa in an important period of its history, namely the end of the ninth century AH / fifteenth century AD and the beginning of the following century, the period that the Portuguese arrived in the region under the leadership of Vasco de Gama, in order to reach the Indian coast and control its trade on the one hand, and, on the other hand, to strike the economy of the Mamluk state and eliminate the Islamic trade network in the waters of the Indian Ocean.

The eastern coast at that time consisted of a group of cities in which Islam had settled long ago. Most of the rulers and residents of the coast were Muslims, as well as the large Islamic communities that used to go to this region and settle there for a long time in order to practice trade, a matter that achieved great commercial prosperity for those cities. All this raised the astonishment of the Portuguese and made them seek to control those cities and their trade and expel Muslims from it.

In this context, this study comes to give more light on the history of the eastern coast of Africa in that period, by talking about the conditions of the Swahili cities and the conditions of their inhabitants, rulers and trade when the Portuguese came to the region. The study relied on information and narrations from Portuguese sources, which are almost - in my opinion - the only sources that dealt in some detail with the history of this coast when the Portuguese arrived at the end of the 9th century AH / 15 AD. Unfortunately, we do not have in our hands Arab sources that talk about the history of East Africa in that important period, as was the case during previous periods.

**Keywords:**

East of Africa – Swahili – Portuguese - Muslim merchants - African gold

## المقدمة:

مثَل الساحل الشرقي لأفريقيا– الذي أطلق عليه الجغرافيون العرب بلاد الزنج [١]– بحكم موقعه الجغرافي القريب والمقابل للجزيرة العربية مكانا حيويا، ومقصدا سهلا للجماعات التي خرجت من بلاد العرب في موجات من الهجرات المتتابعة منذ أقدم العصور. وقد ازدادت هذه العلاقات ترابطا وعمقا بظهور الإسلام؛ فقد تدفق العرب– إلى جانب الشيرازيين الفرس والكوجراتيين الهنود المسلمين– على هذا الساحل لنشر الدين الإسلامي من ناحية ولممارسة التجارة من ناحية أخرى؛ فامتزج هؤلاء الوافدون مع السكان الأصليين، واختلطوا بهم وصاهروهم، حتى أصبح الساحل الشرقي لأفريقيا ذا صبغة عربية إسلامية. وقد تمكنت هذه الجماعات كذلك من تأسيس العديد من المراكز والمدن المزدهرة، التي امتدت بطول الساحل من الصومال شمالا وحتى موزمبيق جنوبا، وتشير بعض المصادر إلى أنه مع نهاية القرن ٩هـ/١٥م كان عدد تلك المدن الساحلية التجارية في المنطقة قد وصل إلى الثلاثين [٢].

بيد أن العام ٩٠٣هـ/١٤٩٨م شهد تغيرا وتحولا كبيرا في تاريخ هذا الساحل، وذلك بوصول الأساطيل البرتغالية بقيادة فاسكو دي جاما للمنطقة، وقد كان المقصد الرئيس للحملات البرتغالية هو الوصول للسواحل الهندية؛ لاحتكار تجارة هذا الساحل من ناحية، ولضرب اقتصاد المماليك وطرد التجار المسلمين من ناحية أخرى (تشابك المصالح الاقتصادية مع الأهداف الصليبية في حركة الكشوفات البرتغالية). فلم يكن ساحل شرق أفريقيا إذا هدفا للبرتغاليين في بداية الأمر، بل كان وسيلة للوصول إلى الهند، غير أن نظرة البرتغاليين تغيرت عندما وصلوا لتلك المدن؛ فقد وجدوا إسلاما ذا جذور عميقة، ومجتمعات إسلامية ترفض الولاء لهم، كما وجدوا كذلك على الساحل اقتصادا مزدهرا وتجارة راقية، فسعوا إلى احتكار تلك التجارة، وعملوا على طرد التجار والجاليات العربية والمسلمة من هذا الساحل.

في هذا السياق تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على فترة مهمة من تاريخ الساحل الشرقي لأفريقيا، وذلك من خلال الحديث عن أوضاع المدن السواحيلية وأحوال سكانها وحكامها وتجارتها عند مقدم البرتغاليين للمنطقة. وقد اعتمدت الدراسة على المعلومات والروايات المستقاة من المصادر البرتغالية المعاصرة، التي تكاد تكون– في اعتقادي– المصادر الوحيدة التي تناولت بشيء من التفصيل تاريخ هذا الساحل عند وصول البرتغاليين للمنطقة مع نهاية القرن ٩هـ/١٥م. فليس بين أيدينا– للأسف– مصنفات عربية تتحدث عن تاريخ شرق أفريقيا في تلك

الفترة الزمنية المهمة، كما كان الحال خلال الفترات السابقة. حتى كتاب "السلوة في أخبار كلوة" الذي دون خلال هذه الفترة فإننا لا نجد فيه معلومات ذات قيمة كبيرة بخصوص هذا الحدث الكبير (وصول البرتغاليين)، واكتفى مؤلفه- المجهول- بكلمات قليلة عن وصول هؤلاء الفرنج بسفنهم إلى كلوة وممبسة وماليندي [٣].

وقد جاء البحث مشتملا على خمسة محاور؛ الأول منها يتناول وصف المؤرخين البرتغاليين لجغرافية مدن الساحل الشرقي، وأهمية هذا الموقع، وعلاقات تلك المدن بالمناطق الداخلية "الوثنية" المجاورة لها. أما المحور الثاني فقد خصص للحديث عن أوضاع ومكانة حكام الساحل، ومواكبهم وزيهم، وعلاقتهم برعاياهم، وموقفهم من البرتغاليين. بينما جاء المحور الثالث متحدثا عن السكان السواحيليين، من حيث ديانتهم ولغتهم ومساكنهم وزيهم وطعامهم واحتفالاتهم. وبالنسبة للمحور الرابع- وهو الأكثر اهتماما من قبل المؤرخين البرتغاليين- فيتحدث عن تجارة الساحل الشرقي، وذلك من خلال عرض أهم السلع والبضائع التي اشتهرت بها تلك المدن- وفي مقدمتها الذهب والفضة والعاج-، ثم التطرق للحديث عن التجار المسلمين القادمين بسفنهم إلى الساحل، وأهم البضائع التي حملوها معهم مقابل حصولهم على الذهب الأفريقي، ثم الحديث عن أهم الموانئ السواحيلية. أما المحور الأخير فقد تناول أهم المحاصيل الزراعية وأنواع الثروة الحيوانية التي اشتهرت بها المدن السواحيلية.

## نظرة على أهم مصادر البحث:

- *La relation du premier voyage aux Indes* (1497-1499).
- *Le second voyage de Vasco de Gama à Calicut.*

تمثل هاتان الرحلتان المؤرختان لحملتي فاسكو دي جاما (أول قائد برتغالي ينجح في اجتياز طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى السواحل الهندية) أهمية كبيرة بالنسبة لهذا البحث؛ فبفضل المعلومات الواردة فيهما يمكننا أن نتبين الدوافع والاستعدادات لبدايات حركة الكشوفات الجغرافية البرتغالية، ومسار هاتين الحملتين وأهم نتائجهما؛ لذلك فهذان الكتابان يعدان أهم مصادرنا لمعرفة موقف حكام الساحل الشرقي لأفريقيا تجاه الوافدين الأوربيين، كما أنهما يعطيان وصفا دقيقا لجغرافية المدن السواحيلية، فضلا عن الإشارات المتعلقة بتواجد التجار المسلمين- العدو الأول للبرتغاليين- على هذا الساحل. كما أن الكتاب لا يخلو من ذكر بعض المعلومات الخاصة بأهم السلع والبضائع التي اشتهرت بها تلك المدن الساحلية

- *Chroniques de Damião de Goes, João de Barros, Gaspar Correa*
- *Chroniques de João de Barros, Damião de Goes, Gaspar Correa, Garcia de Resende*

يعتبر هذا الكتابان من أهم السجلات والوثائق المعاصرة للمشروع البرتغالي؛ وهما يضمان روايات لعدد من أهم المؤرخين البرتغاليين في العصور الوسطى على الإطلاق؛ مثل جواو دي باروس وداملياو دي جويز وجاسبار كوريا وكاستنهيدا. فهذه السجلات تؤرخ لمشروع التوسعات البحرية البرتغالية من بداياته على عهد الأمير هنري الملاح وحتى تمكن البرتغاليين من فرض هيمنتهم على معظم سواحل المحيط الهندي. ويحتل الساحل الشرقي لأفريقيا مكانا مهما في روايات هؤلاء المؤرخين، من حيث الحديث عن الطبيعة الجغرافية للساحل، والإشارة إلى انتشار الإسلام في جميع مدنه، وماهية العلاقات التي ربطت القادة البرتغاليين بحكامه، حتى تمكنهم من إخضاع الساحل بأكمله لنفوذهم. كما أن روايات هؤلاء المؤرخين أتت كاشفة لبعض المظاهر الاجتماعية للسكان السواحيليين، مثل الحديث عن ديانتهم ولغتهم ومساكنهم واحتفالاتهم وغير ذلك من المظاهر. ولم تخل تلك السجلات بطبيعة الحال من إشارات مهمة تخص تجارة الساحل، وأهم البضائع التي اشتهر بها، وفي مقدمتها الذهب والعاج.

- *A Description of the coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the sixteenth century*

ينسب هذا المصدر إلى المؤرخ والمستكشف البرتغالي الشهير دوارت بربوزا الذي عاش فترة طويلة من عمره في بلاد الهند (ما بين عامي ١٥٠٠م و١٥١٦م)، وقد تقلد خلال هذه الفترة عددا من المناصب والوظائف. ويعد بربوزا من أهم المؤرخين الذين تحدثوا عن الساحل الشرقي لأفريقيا، ويعتبر وصفه لجغرافية تلك المدن من أكثر الروايات تفصيلا ودقة؛ فنراه يحدثنا عن المناخ والأسوار والتحصينات التي تميزت بها تلك المدن، كما أنه يعد من القلائل الذين تعرضوا للعلاقات التي ربطت بين المدن الساحلية وبين المناطق الأفريقية الداخلية. هذا فضلا عن معلوماته القيمة الخاصة بموانئ هذا الساحل وأهم مميزاتها وحركة التجارة فيها. ولا يمكن كذلك إغفال الإشارات والمعلومات التي تخص حكام الساحل وأهم المظاهر المتعلقة بحكمهم.

## ١. وصف لجغرافية مدن الساحل:

بعد تجاوز البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح وولوجهم إلى الساحل الشرقي لأفريقيا- لأول مرة بقيادة فاسكو دي جاما عام ٩٠٣هـ/١٤٩٨م- بدأوا يشاهدون مدنا وبلادا مزدهرة وعامرة بالسكان بشكل لم يكونوا يتخيلونه، وهو الأمر الذي أصابهم بالدهشة. يقول دافيدسون إن تلك المدن الساحلية كانت تماثل في روعتها المدن الأوربية الحديثة، "ولقد كان واضحا أن هؤلاء البحارة الأوربيين في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي لا يمكن أن يفوقوا هؤلاء الذين كانوا يعيشون في سواحل شرق أفريقيا"؛ فقد كان السواحيليون على قدر كبير من التقدم والتمدن، وكانت مدنهم مؤسسة على أحسن طراز [٤]. كما أن الرحالة الإيطالي الشهير فارتيما- الذي كان في المنطقة مع بداية القرن ١٠هـ/١٦م- يقول إنه "من خلال ما رأيت في الهند وفي شرق أفريقيا يبدو لي أن ملك البرتغال إذا أذن الله وواصل انتصاراته فإنه سيغدو أغنى ملوك الأرض" [٥]. والواقع أن الانطباع الأول الذي وصل للبرتغاليين عند وصولهم لساحل موزمبيق قد ظهر جليا وتجسد في السعادة التي أبداها القائد فاسكو دي جاما، واصفا الفرحة الكبيرة التي شعر بها هو وجنوده وهم يطالعون هذا المنظر الرائع [٦].

وتعد موزمبيق بطبيعة الحال هي أول محطة وصل إليها البرتغاليون وأولى المدن التي تعرض لها المؤرخون بالحديث والوصف؛ فيقول عنها كاستنهيدا إنها مدينة منخفضة ومستنقعية، وكان يسكنها المسلمون القادمون إليها من مدينتي كلوة وسوفالة [٧]. علما بأن مدينة موزمبيق قد نالت أهمية وعناية كبيرة لدى البرتغاليين بعد استيلائهم عليها؛ فقد أصبحت محطة شتوية رئيسة للسفن البرتغالية المتجهة إلى سواحل بلاد الهند، أو بمعنى آخر "أصبحت مفتاح تجارتهم الهندية" [٨]. هذا فضلا عن أن ميناء المدينة كان يعد المركز الرئيس لتجمع السفن البرتغالية التي كانت بحاجة إلى إصلاح وتجديد، ومما ساعد على هذا الأمر هو وفرة الأخشاب في هذا المكان [٩]. ويذكر جواو دي باروس أن موزمبيق في زمنه أصبحت الميناء الملاحي الأكثر شهرة في العالم [١٠]. أما سوفالة[١١] فهي بلاد السهول والجبال والمياه، بحسب كلمات بربوزا [١٢]. ويصف دوارت بربوزا كلوة[١٣] بأنها جزيرة قريبة من البر [١٤]. كما أن المدينة كانت تتميز بخضرتها؛ فقد كانت غنية جدا في الفواكه والخضروات [١٥].

كما أشارت المصادر البرتغالية إلى أن مدينة ممبسة[١٦] تتميز باتساعها، وأنها مبنية على أرض مرتفعة، أو تل صخري يقع قبالة البحر [١٧]. ويضيف فاسكو دي جاما- الذي يعد أول

قائد برتغالي يصل إلى ممبسة وإلى مدن الساحل الشرقي لأفريقيا بصفة عامة- أن هواء المدينة وجوها يتميز بأنه نقي وصحي، "حتى أن جميع جنوده المرضى قد نعموا بالصحة والعافية عندما وصلوا إلى هذه المدينة" [18]. وإلى نفس هذه النقطة ذهب دامياو دي جويز، ذاكرا أن هذه المدينة تتميز بمياهها العذبة الجميلة، وهوائها وجوها الصحي [١٩].

وبالنسبة لمدينة ماليندي فتشير المصادر إلى أنها كانت مبنية على منطقة صخرية بارزة في البحر، وهي تقع على الساحل المفتوح، كما أنها كانت تطل على سهل شاسع "تزينه أجمل الحدائق"؛ لذلك فقد وصفت بأنها مدينة جميلة المنظر [٢٠]. كما أنها كانت محاطة من الداخل ببستان كبير للغاية من النخيل، الذي كان يصل حتى منازل المدينة [٢١]. ويقول جاسبار كوريا إن تلك المدينة كانت تتميز بالرحابة والسعة، وكان يحيط بالمدينة سور "جميل البناء"، وجزء من هذا السور كان يمتد بطول الشاطئ [٢٢]. ويضيف هذا المؤرخ أن عظمة هذه المدينة تتجلى في أبنيتها النبيلة وأسوارها العالية، وهي تبدو في شكل مهيب، "لذلك عند رؤيتها شعر رجالنا بسرور عظيم، وأعطوا الثناء العظيم للرب الذي أوصلهم إلى مثل هذا البلد" [٢٣].

كما أن فاسكو أشار إشارة مقتضبة إلى مدينة باتي *Pate* [24]؛ إذ إنه بعد إبحار الأسطول البرتغالي من مقديشو وأثناء بحثهم عن مدينة ماليندي- الصديق الأوحد بالنسبة لهم في المنطقة- للرسو بها، تفاجئوا بخروج أسطول صغير من "بلدة تسمى باتي"، وكان هذا الأسطول يتألف من ثمانية قوارب ويحمل العديد من الأشخاص. وعندما اقتربت تلك القوارب من السفن البرتغالية قامت هذه الأخيرة بإطلاق القذائف عليها، فاضطرت قوارب باتي للهرب [٢٥]. وقد وصفت هذه المدينة بأنها جيدة التحصين، ومحاطة بالأسوار المبنية من الأحجار، وأن سبب هذه التحصينات هو القتال المستمر بين سكانها وبين سكان الداخل الوثنيين [٢٦]. ويحدثنا بربوزا عن مدينة برافا *Brava* (براوة)[٢٧]، ذاكرا أنها تقع على الساحل باتجاه الشمال بعد مدينتي باتي ولامو[٢٨]، ويؤكد هذا المؤرخ أن تلك المدينة مأهولة بالسكان المسلمين، كما أنها تتميز بتحصيناتها وسورها القوي [٢٩].

وفيما يخص مدينة مقديشو[٣٠] فقد وجدنا إشارة إليها من قبل القائد فاسكو، الذي يذكر أن البرتغاليين عقب مغادرتهم للساحل الهندي، وعندما توجهوا ناحية الساحل الأفريقي، وجدوا أنفسهم أمام مدينة كبيرة جدا "يسميها المسلمون مقديشو"، منازلها مبنية من الأحجار، وأن تلك الدور تتكون من عدة طوابق، كما أنه في وسط المدينة كانت توجد العديد من القصور الكبيرة،

وفي مقدمتها القصر الملكي. وقد تم بناء هذه المدينة قبالة البحر مباشرة، كما أنه كان يوجد حول المدينة أربعة أبراج لتوفير الحماية لها [٣١]. ويصف بربوزا مقديشو بالجمال والاتساع [٣٢]. وهناك كذلك مدينة بربرة- التي مر بها أسطول كابرال- والتي يصفها كوريا بأنها مدينة جميلة، وبها منازل بيضاء تشتمل على كثير من الشرفات. ويؤكد هذا المؤرخ أن البرتغاليين كانوا مندهشين من رؤية مدينة على الساحل الأفريقي بمثل هذه الوضعية والأهمية [٣٣].

والواقع أنه بالرغم من إشارات المؤرخين إلى وفرة المياه العذبة بمعظم مدن الساحل الشرقي، كما هو الحال على سبيل المثال مع مدينة ماليندي، التي ذكر كاستنهيدا أنها تشتمل على العديد من ينابيع المياه الصالحة للشرب [٣٤]، وكذلك كلوة التي يقول عنها دامياو إنها تمتلك العديد من مصادر المياه العذبة [٣٥]، إلا أن هناك بعض المدن- كما هو الحال في موزمبيق- كانت تعاني في المقابل من نقص حاد في المياه العذبة، وأن جميع المياه الموجودة بتلك الجزيرة إنما هي مياه مالحة، وهو الأمر الذي جعلها تسعى للحصول عليه من المناطق الداخلية المجاورة لها، ثم تقوم بتخزين هذه المياه في صهاريج معدة سلفا لهذا الأمر بالقرب من ميناء المدينة، ومن ثم يتم توزيعها على السكان [٣٦]. وقد أشار فاسكو إلى أن قلة المياه في موزمبيق كانت سببا في وقوع اشتباكات بين جنوده وبين حامية تلك المدينة؛ إذ إنه لما أراد بعض البرتغاليين النزول إلى الشاطئ والحصول على الماء فوجئوا بوجود مجموعة (حامية) من الحراس الموزمبيقيين، الذين أقاموا في المكان حواجز منيعة، وذلك باستخدام ألواح قوية مثبتة بطريقة "لا تمكننا من رؤية من كانوا محتمين خلفها". وقد انتشر هؤلاء الحراس بطول الشاطئ، حاملين معهم الدروع الصغيرة، ومسلحين بالسكاكين والأقواس والرافعات التي كانوا يرشقون بها البرتغاليين. وفي إشارة إلى بدائية وضعف تلك الأدوات الحربية في مقابل ما كان يمتلكه البرتغاليون، يقول فاسكو: لكننا باستخدام قنابلنا أجبرناهم على التفرق والانسحاب من الشاطئ، واللجوء للاختباء وراء تلك الحواجز التي كانوا قد أقاموها. ثم تحصل البرتغاليون على ما يحتاجونه من مياه [٣٧].

من ناحية أخرى، فقد ظلت المناطق الداخلية "الوثنية" تمثل خطرا كبيرا يهدد سكان المدن الساحلية[٣٨]؛ فقد ذكر المؤرخ بربوزا أن أهالي ممبسة كانوا في حروب دائمة مع سكان تلك المناطق، وأنه قلما يسود السلام بينهما، الا أنه أكد في الوقت نفسه أن هذا العداء لم يحل دون قيام صلات تجارية بين الطرفين [٣٩]. كما أن القائد البرتغالي فاسكو يذكر أن سكان سوفالة

كانوا في حرب وصراع دائم مع السكان الوثنيين *paepiens* المقيمين في الداخل، وأن هناك نهرا- يسمى *sabia*- كان يجري من أراضي تلك المناطق الوثنية ويصل إلى سوفالة، وأن هذا النهر كان هو الوسيلة الوحيدة لوصول هؤلاء الوثنيين إلى سواحل المحيط، لذلك- وخوفا من مشاركتهم المباشرة في تجارة هذا المحيط- كان أهالي سوفالة يمنعون سكان تلك المناطق من ارتياد هذا النهر والوصول إلى مدينتهم [٤٠]. كما أن فاسكو أشار كذلك إلى وجود عدد من هؤلاء الوثنيين في سجون سوفالة، وأنهم كانوا يعاملون كالعبيد [٤١]. وقد تم الإشارة مسبقا كذلك إلى الحروب الدائمة التي كانت تدور بين سكان باتي وبين هؤلاء السكان الوثنيين [٤٢].

## ٢. حكام الساحل الأفريقي

في الواقع، بالرغم من أن المؤرخين البرتغاليين يلقبون معظم حكام مدن الساحل "بالملوك" إلا أن الاستثناء نجده مع حاكم موزمبيق، الذي أطلقوا عليه لقب "شيخ"، كما أنهم أشاروا إلى أن هذا الشيخ كان تابعا لملك كلوة، ويدين له بالولاء والخضوع [٤٣]. من ناحية أخرى، فإن دوارت بربوزا عند حديثه عن برافا يذكر أنه لم يكن هناك ملك على تلك المدينة، وإنما كانت تحكم بشيوخها، "وهم أشخاص مكرمون ومحترمون" [٤٤]. في حين أنه لما انتقل للحديث عن مقديشو قال إن لها ملكا يقوم بحكمها [٤٥].

ونستطيع من خلال الإشارات القليلة التي وردت في المصادر البرتغالية أن نلقي بعض الضوء على بلاط حكام الساحل ومواكب وملابس هؤلاء الحكام؛ ولا شك أن ملك كلوة كان من أشهر حكام الساحل في ذلك الوقت، نظرا للأهمية والثقل الكبير الذي كانت تمثله مدينته من الناحيتين السياسية والتجارية [٤٦]. حقيقة الأمر، عند وصول البرتغاليين للمنطقة كان العديد من حكام المدن الساحلية- مثل سوفالة وموزمبيق وأنجوش وزواما- يدينون بالطاعة والولاء لهذا الحاكم [٤٧]، الذي كان يعد "الملك الأعظم بينهم" [٤٨]. كما يشير المؤرخون إلى أن هناك علاقات مصاهرة كانت تتم بين البيت الحاكم بكلوة وبين بقية حكام الساحل؛ فعلى سبيل المثال يذكر كوريا أن ملك ممبسة كان متزوجا من ابنة ملك كلوة. ولا شك أن تلك المصاهرات كانت عاملا مهما في تقوية أواصر العلاقات بين الجانبين، كما أنها منحت حاكمي كلوة كثيرا من الهيبة والنفوذ [٤٩].

وقد وصف المؤرخون ملك كلوة بأنه "ثري للغاية" [٥٠]. وقد ظهر هذا الأمر- كما يقول دامياو دي جويز- من خلال الهدايا الثمينة التي أرسلها هذا الملك- الذي يدعى إبراهيم

Abrahemo- إلى فاسكو دي جاما- أثناء رحلته الثانية ٩٠٧هـ/١٥٠٢م- والتي اشتملت على كميات كبيرة من القماش الفاخر، بالإضافة إلى الذهب والمجوهرات الثمينة [٥١]. ولعل هذا الثراء الذي كان عليه حاكم كلوة هو الذي دفع القائد البرتغالي إلى مراسلة الملك مانويل من أجل تشييد حصن في هذه المدينة، ذاكرا له أن نفقات البناء ونفقات الحامية المدافعة عن هذا الحصن ستكون على عاتق الحاكم، الذي تتمتع مدينته "بالغنى الفاحش" [٥٢].

ثم نرى هذا القائد البرتغالي يصور لنا المشهد الاحتفالي الذي يظهر فيه هذا الملك بين رعيته، فيذكر أنه عندما يخرج من قصره[٥٣] كان الأهالي يقومون برش الماء وإلقاء الأغصان الصغيرة والورود على رأسه، كما إنهم كانوا يصفقون ويغنون ويرقصون وهم مبتهجون ومسرورون للغاية [٥٤]. ومن عادات هذا الملك أنه كان يذهب كل يوم مع رعيته للاستحمام في البحر، وكانوا يسيرون وهم عراة باستثناء قطعة صغيرة من القماش كانوا يشدون بها خصرهم [٥٥]. وفي الواقع، فإن "كبرياء ملك كلوة" منعه من إعلان خضوعه للبرتغاليين، ولم يعلن استسلامه، وإنما أخذت منه المدينة بالقوة عام ٩١١هـ/١٥٠٥م، فاضطر هذا الحاكم للفرار، بينما تعرض السكان لبطش الجنود البرتغاليين وقتل منهم كثير وأسر آخرون [٥٦].

كما كان ملك ممبسة واحدا من أقوى حكام الساحل على الإطلاق عند وصول البرتغاليين للمنطقة [٥٧]، ولا شك أنه قد استمد تلك الأهمية من المكانة المميزة التي كانت تتبوأها مدينته في ذلك الوقت، والتي كانت تعد المدينة الأكثر أهمية على الساحل. وقد بدت مظاهر الأبهة والعظمة على ملك المدينة وبلاطه؛ فعلى سبيل المثال لما وصل الوفد المرسل من جانب فاسكو إلى شاطئ ممبسة اصطحبهم عدد كبير من الجنود حتى بوابة قصر الملك، وقبل أن يصلوا إلى الحجرة الملكية مروا من خلال أربع بوابات يحرسها أربعة جنود، كل واحد منهم كان يراقب بابه باهتمام ويمسك بيده سيفا. ثم لما وقف الرسل البرتغاليون بين يدي الملك أحسن استقبالهم، ثم جعلهم يقومون بجولة في المدينة [٥٨]. جدير بالذكر أن هذا الحاكم- كملك كلوة- لم يرضخ للبرتغاليين، وظل مناوئا لهم، حتى تمكنوا من أخذ المدينة بالقوة عام ٩١١هـ/١٥٠٥م، ولما دخلها البرتغاليون أعملوا فيها وفي أهلها التدمير والقتل، وأسروا كثيرا من الأهالي [٥٩].

من جانبه كان ملك ماليندي هو الحاكم الوحيد على الساحل الذي رحب بالبرتغاليين- الذين وصلوا للمنطقة عام ١٤٩٨م، ووافق على الدخول مع فاسكو دي جاما في صداقة "دون تفكير"، بل إنه أظهر فرحا كبيرا، وقام بتعليق الأعلام على سور مدينته ابتهاجا بوصول فاسكو

إلى بلاده– كما يذكر جاسبار كوريا. لذلك نجد المؤرخين البرتغاليين المعاصرين كثيرا ما يرددون "أن هذا الملك كان مسلما، لكن قلبه كان مسيحيا" [٦٠]. كما أن تلك المصادر تصفه كذلك بأنه "لطيف ومحبوب وحسن التصرف" [٦١]. وفي محاولة منهم لتفسير مسلك هذا الحاكم المتناقض مع مواقف بقية حكام الساحل، نجد المؤرخين البرتغاليين يربطون هذا الأمر "بالكهانة"؛ قائلين إن هناك عرافا كان موجودا في بلاط ملك ماليندي، وكان هذا الأخير يضع ثقته في هذا العراف، فلما أبلغه بأن البرتغاليين سيسيطرون على كل بلاد الهند، وسينتصرون على أعدائهم، ونصحه بمهادنتهم والدخول معهم في صداقة، حتى يتجنب ما تعرض له أعداء البرتغاليين، ما كان من هذا الحاكم إلا أن استجاب لتلك الوصية، وأحسن استقبال فاسكو، وأصبح منذ تلك اللحظة الحليف الأول للبرتغاليين على الساحل [٦٢].

ويصف لنا جواو دي باروس الأبهة التي كان عليها حاكم ماليندي في مقابلاته واحتفالاته الرسمية قائلا إنه لما أتى إلى الشاطئ لمقابلة القائد فاسكو دي جاما جاء محمولا على كرسي مطرز بقماش من الحرير، ومحاط بستائر من الجانبين. هذا الكرسي كان محمولا على أكتاف أربعة رجال. وكان يتبع الحاكم كثير من أعيان وسادة مدينته، الذين كانوا يرتدون أروع وأجمل الملابس، هذا إلى جانب عدد كبير من الرعية أو ما يسمى بالعوام [٦٣]. وفي رواية أكثر تفصيلا لهذا الموكب يذكر دامياو دي جويز أن ملك ماليندي كان جالسا على كرسي كبير له ظهر مرتفع من المعدن اللامع، ومقعده مغطى بوسادة مخملية. وكان الملك يرتدي ثيابا دمشقية قرمزية مبطنة بالساتان الأخضر، ويضع فوق رأسه عمامة فخمة. وكان هناك رجل يحمل مظلة كبيرة من الساتان القرمزي، ذات مقبض ذهبي، وذلك لحماية الملك من حرارة الشمس. وإلى جوار الملك كان يجلس شيخ كبير يحمل بيده "السيف الملكي الجميل"، وهو سيف مغاربي عريض وقصير ومزين بالذهب والفضة [٦٤].

كما أن جاسبار كوريا يذكر أن ملك ماليندي كانت يمتلك مركبا خاصا به، مجهزة لتنزهه وتنقلاته، وأن أحد القادة البرتغاليين ويدعى Nicolao Coelho– الذي كان مرسلا من قبل القائد فاسكو لعقد بنود معاهدة الصداقة مع هذا الحاكم– لما أراد العودة مرة أخرى إلى الأسطول البرتغالي، قام الحاكم باصطحابه على مركبه الخاص، وقد أشاد نيكولا بجمال هذه المركب وروعة زينتها [٦٥]. ولما أرسل القائد كابرال وفدا إلى هذا الحاكم لتسليمه رسالة من الملك البرتغالي، كان كبار رجال الدولة في استقبال هذا الوفد، وساروا سويا باتجاه القصر الملكي،

وقد اصطف على الجانبين مجموعة من النساء، يحملن أطباقا خزفية تخرج منها رائحة البخور العبقة. ولما وصل هؤلاء الرسل للقصر وجدوا الحاكم في انتظارهم، وهو يجلس على كرسي فخم مطعم بالذهب والفضة [٦٦].

ويصف لنا دامياو شيخ موزمبيق- الذي كان يدعى Caçoeja- بأنه رجل طويل القامة ونحيف الجسد، وكان يتزين برداء على الطراز التركي مصنوع من نسيج قطني ناعم وفخم، وفوقه رداء آخر مصنوع من المخمل القادم من مكة. كما كانت عمامته ذات ألوان متعددة ومصنوعة من قماش فخم مطرز بخيوط ذهبية. وفي خصره كان يرتدي سيفا مغاربيا محلى بالعديد من الأحجار الكريمة، كما كان درعه المستدير مزين بالطريقة نفسها [٦٧]. أما كوريا فيصف هذا الشيخ بأنه كان ذا بشرة داكنة وحسن القوام وله حضور وهيئة جيدة، وأنه لما أتى لمقابلة القائد البرتغالي فاسكو دي جاما كان يمتطي زورقين مرتبطين ببعضهما البعض، وعلى هذين الزورقين أعمدة وألواح مغطاة بفرش، لجلب الظل للشيخ وحمايته من حرارة الشمس. وكان الشيخ يجلس على كرسي دائري منخفض، مغطى بقطعة قماش من الحرير، وعليه وسادة متكئا عليها الشيخ [٦٨].

مهما يكن من أمر، فإنه من خلال وصف المؤرخين البرتغاليين يمكننا القول إن مواكب هؤلاء الحكام كانت أقرب ما تكون إلى احتفالية كبيرة يشارك فيها جميع فئات المجتمع، حيث كانت الآلات الموسيقية والغناء جزءا أساسيا في تلك المهرجانات؛ فعلى سبيل المثال يشير كاستنهيدا إلى أن شيخ موزمبيق لما أتى لمقابلة القائد البرتغالي فاسكو اصطحبه كبار رجال دولته وعدد من الرعية، ومع البعض أبواق من العاج وآلات موسيقية أخرى، كانوا يعزفون عليها دون توقف [٦٩]. كما أن تلك الآلات الموسيقية كانت حاضرة كذلك في ماليندي أثناء اللقاء الذي جمع حاكم المدينة بالقائد البرتغالي المذكور آنفا [٧٠].

والشيء الجدير بالملاحظة الذي نستطيع كذلك أن نستخلصه من روايات المؤرخين البرتغاليين هو أن حكام الساحل لم يكونوا منعزلين عن رعيتهم، خاصة في المواقف الحاسمة التي كانت تتعرض لها ممالكهم، وإنما كانوا يستأنسون بمشورة أهل الرأي قبل أن يصدروا قراراتهم؛ فجسبار كوريا يذكر أن البرتغاليين لما وصلوا بقيادة فاسكو إلى سواحل ماليندي عام ٩٠٣هـ/١٤٩٨م، وبعد مراسلة القائد البرتغالي لملك المدينة من أجل الدخول في معاهدة سلام، قام هذا الحاكم باستدعاء قضاته ومستشاريه، وتحدث معهم في الأمر من أجل أخذ الرأي

والمشورة، "لأنه لا يريد أن يقع في الاختيار الخاطئ" في حالة انفراده باتخاذ القرار، وقد اتفق الجميع على الدخول في صداقة مع هؤلاء البرتغاليين، الذين لم تصدر منهم أي روح عدائية تجاه سكان المدينة- بحسب كلمات كوريا-، وأنه في حال ظهر للملك أي سوء نية أو اعتداء من قبل هؤلاء الوافدين فإنه يستطيع أن يتصدى لهم بالقوة، ويقوم بطردهم من المدينة [٧١]. كما أن هذا المؤرخ نفسه يذكر في موضع آخر أن القائد بدرو ألفونسو- المرسل من قبل فاسكو- لما وصل إلى سوفالة عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م، وعرض على ملكها الدخول في معاهدة سلم مع البرتغاليين، والسماح لهم بالتجارة مع بلاده، فإن أول ما فعله هذا الملك هو التشاور مع "رؤساء ووجهاء البلد" الذين كانوا صحبته. وقد انتهى الرأي باستجابة الملك لهذا العرض وموافقته على الدخول في صداقة مع البرتغاليين، والسماح لهم بممارسة التجارة في بلاده، وإن كانت مواقف هذا الملك قد تبدلت لاحقا، وعزم على مناصبة البرتغاليين العداء [٧٢]. موقف آخر مشابه نجده هذه المرة لدى ملك كلوة؛ إذ إن فاسكو لما وصل بأسطوله إلى هذه المدينة- في رحلته الثانية- طلب من هذا الحاكم دفع ضريبة سنوية للملك البرتغالي، كدليل على استمرار الصداقة، فلما رفض الملك بداية هذا الأمر، لأنه يعد من قبيل الخضوع والإذلال وليس نوعا من الصداقة والأخوة، قام فاسكو بتهديده باستخدام القوة ضده وضد رعيته وضرب المدينة بالمدافع، فما كان من صاحب كلوة إلا أن قام باستشارة من معه من كبار رجال دولته، وتداولوا تداعيات هذا الأمر، ثم انتهت مناقشاتهم بالاستجابة لطلب القائد البرتغالي، حفاظا على مدينتهم وأرواح أهلها[٧٣].

## ٣. السكان السواحيليون وأوضاعهم الحياتية

إن أول ما يمكن ملاحظته من خلال حديث المؤرخين البرتغاليين عن سكان الساحل الشرقي لأفريقيا هو اتفاقهم على أن كل هؤلاء السكان كانوا من المسلمين؛ فها هو فاسكو دي جاما يذكر أن سكان موزمبيق يعتنقون الدين الإسلامي [٧٤]. كما يذكر دامياو دي جويز أن البرتغاليين لما وصلوا لأول مرة إلى موزمبيق علموا أن أهالي تلك المدينة مسلمون *Maures* [٧٥]. من ناحيته يقول كاستنهيدا إن ملك كلوة وجميع السكان المحليين كانوا يعتنقون الدين الإسلامي، كما يذكر المؤرخ نفسه أن مدينة ممبسة مأهولة بالمسلمين فقط، كما هو الحال بالنسبة للساحل كله [٧٦]. والأمر نفسه نجده كذلك عند فاسكو وبربوزا أثناء حديثهم عن مدن ماليندي وبرافا ومقديشو [٧٧]. أما كوريا فيقول إن معظم ملوك وحكام مدن الساحل الشرقي ينتمون

إلى "الملة المحمدية" [٧٨]. والواقع أن فاسكو دي جاما وهو في طريقه إلى ممبسة كان يظن- ويمني النفس- أن هذه المدينة تحتوي على عدد كبير من المسيحيين- كما أخبره بذلك الملاح المسلم الذي كان معه على متن سفينته-، وهم يعيشون في منطقة منعزلة عن بقية السكان المسلمين، وأن لهم حاكما خاصا بهم، ومن ثم فإنهم سيتحالفون مع البرتغاليين بحكم اتفاق ديانتهم. لكن فاسكو اكتشف حقيقة الأمر عندما وصل إلى المدينة [٧٩]. كما أن بعض الروايات البرتغالية تعطي إشارات عن التزام السواحيليين بتعاليم الشرع الإسلامي؛ من ذلك ما يذكره كوريا عن رفض ملك ماليندي ومن معه من رعيته شرب الخمر، عندما ذهبوا لزيارة القائد البرتغالي، ويبرر المؤرخ هذا الأمر بقوله إنها لم تكن من عاداتهم [٨٠]. كما أن أهالي كلوة كانوا حريصين على اقتناء المصاحف، وأنهم "يحبون ويعظمون نبيهم محمدا ﷺ" [٨١].

من ناحية أخرى، كانت اللغة العربية هي اللغة السائدة بين السكان السواحيليين؛ إذ يذكر فاسكو صراحة أن الأهالي في موزمبيق يتحدثون اللغة العربية [٨٢]. كما أن دامياو دي جويز يخبرنا بأن الأسطول البرتغالي لما وصل لأول مرة إلى ساحل موزمبيق توجه إليهم عدد من سكان هذه البلدة وهم يمتطون قواربهم، ولما وصلوا إلى البرتغاليين قاموا بتحيتهم باللغة العربية، وذلك ظنا منهم- في بادئ الأمر- أن تلك السفن التي لجأت لساحلهم إنما كانت- كما هي العادة- ملكا لتجار مسلمين [٨٣]. أما بربوزا فيذكر أن كل السكان داخل مدينتي كلوة ومقديشو يتحدثون اللغة العربية [٨٤]. بينما يقول المؤرخ نفسه أن العدد الأكبر من سكان سوفالة يتحدثون العربية، إلى جانب وجود فئة تتحدث باللهجة واللغة المحلية المنتشرة في المناطق الوثنية الداخلية [٨٥]. ولعل هذا الأمر هو الذي جعل ملك البرتغال دوم مانويل حريصا على كتابة رسائله لحكام الساحل باللغة العربية، وذلك منذ إرساله لحملته الثانية التي كانت تحت قيادة الفاريز كابرال[٨٦].

جدير بالذكر، أن هناك بعض الإشارات لدى المؤرخين البرتغاليين تفيد بأن الكتابة لم تكن مستخدمة في العديد من مناطق الساحل؛ فكوريا على سبيل المثال يذكر أن ملك سوفالة ورعيته لم تكن لديهم معرفة بالأوراق والكتابة عليها، وأن العهود والمواثيق التي كان يقوم بها هذا الملك إنما كانت تتم عن طريق وضع يده اليمنى في أيادي أفراد رعيته كدليل على الوفاء بالوعود والعهود. وهذه الهيئة هي التي اتبعها الملك وأفراد رعيته لما عقدوا معاهدة الصداقة مع البرتغاليين عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م، بينما سجل البرتغاليون بنود هذه المعاهدة مكتوبة في أوراق، وقاموا بالتوقيع عليها. ويضيف كوريا أن الملك والأهالي لما رأوا هذه الأوراق وهي تقرأ عليهم

أصيبوا بالدهشة والإعجاب، "لأنهم لم يكونوا شعبا يحسن الكتابة" [٨٧]. في المقابل، فإن هذا المؤرخ عينه يروي لنا ما يدل على معرفة أهل كلوة بالكتابة واستخدامهم لها في التدوين؛ إذ إنه لما تم الاتفاق بين ملك هذه المدينة وبين القائد فاسكو- في العام آنف الذكر- أمر هذا الملك باستدعاء كاتبه، الذي قام بتدوين بنود وشروط الاتفاق في ورقة من الذهب، ثم قام الملك ومن معه بالتوقيع عليها [٨٨].

أما عن وصف السكان السواحيليين، فيشير المؤرخون إلى أن سكان ممبسة بصفة عامة كانوا يتميزون ببشرتهم الداكنة، كما أن نساء المدينة كن يرتدين الحرير، ويتحلين بالذهب والأحجار الكريمة [٨٩]. بينما يشير كاستنهيدا إلى وجود بعض السكان من ذوي البشرة البيضاء (ربما كانوا من التجار المسلمين القادمين من البلاد الهندية والعربية) [٩٠]. أما كلوة فقد كانت مدينة كبيرة، وكانت تشتمل على عدد كبير من السكان [٩١]. وكان هؤلاء السكان المسلون داكني البشرة، إلى جانب عدد قليل من الزنوج وأصحاب البشرة البيضاء. وكان الأهالي يرتدون ثيابا فخمة مصنوعة من الديباج والقطن والقرمزي ومحلاة بالخيوط الذهبية، لذلك فقد وصفوا بأنهم "حسنو المظهر". وفيما يخص النساء، فإلى جانب فخامة ملابسهن فإنهن كن يتزين بالذهب والفضة، ويضعن في أيديهن وأرجلهن وآذانهن الأساور والسلاسل والقلائد [٩٢].

وبالنسبة لماليندي فيقال إن عدد سكانها عند وصول البرتغاليين إليها كان يصل إلى مائتي ألف شخص [٩٣]. وكان السكان أصحاب بشرة داكنة وسوداء [٩٤]. وقد أشار كاستنهيدا إلى جمال وأناقة نساء ماليندي، وارتدائهن لأجمل وأفخم الملابس، لذلك فقد كن مضربا للأمثال في هذا الجانب؛ حيث كانت هناك مقولة شائعة بين سكان هذا الساحل تقول: "إن الفرسان هم فرسان ممبسة، والنساء هن نساء ماليندي" [٩٥].

وسكان سوفالة وصفوا بأنهم أصحاب بشرة سوداء [٩٦]، وأنهم كانوا يلفون أنفسهم من الخصر وحتى الأسفل بقطعة قماش من القطن أو الحرير، كما أنهم كانوا يرتدون أقمشة حريرية أخرى كالعباءات وأغطية الرأس، وبعضهم كلن يرتدي أغطية من القرمزي ومن الأقمشة الصوفية الملونة [٩٧]. وقد كانت تلك الأقمشة تأتي إلى المدينة من كمباي[٩٨] الهندية، إلا أنه مع بدايات القرن ١٠هـ/١٦م بدأ السكان المحليون ينتجون كميات من الأقمشة والأنسجة القطنية رفيعة المستوى. بيد أن هؤلاء السكان لم يكونوا يمتلكون أي ألوان صبغية، لذلك استعانوا في نسج

خيوطهم البيضاء بالمواد الصبغية الزرقاء والملونة القادمة من كمباي. وبهذه الطريقة تمكن الأهالي من الحصول على كميات كبيرة من الذهب نظير بيع هذه المنسوجات [٩٩].

أما المؤرخ دامياو دي جويز فيعطينا صورة أكثر تفصيلا عن سكان موزمبيق وهيئتهم والملابس التي يرتدونها؛ فيذكر أن الرجال كانوا ذوي بشرة فاتحة وذوي أجسام جيدة، وكانت ملابسهم من الأقمشة القطنية، وبعضها كانت مصنوعة من الحرير وذات أوان متعددة. كما كان الرجال– خاصة الأعيان منهم– يرتدون عمامات من القماش الفاخر، وهي مطرزة بخيوط مذهبة، وكانوا يحملون في أحزمتهم– التي يرتدونها في خصرهم– سيوفا مغاربية كبيرة الحجم، كما كانوا يعلقون في أذرعهم دروعا صغيرة مصنوعة من الجلد [١٠٠]. تلك البشرة الداكنة التي كانت السمة البارة لمعظم السكان السواحيليين نجدها كذلك في مقديشو، إلى جانب وجود عدد قليل من الزنوج وأصحاب البشرة البيضاء [١٠١].

وفيما يخص المنازل التي كان يقطن فيها السواحيليون فإننا نجد المصادر تعطينا وصفا لها في معظم تلك المدن. فقد تميزت كلوة بمنازلها الجميلة المبنية من الأحجار والجير، وهي مرتفعة البناء وتتكون من أكثر من طابق، وتشتمل على العديد من النوافذ والشرفات. كما أن لهذه المنازل حدائق محيطة بها، والتي كانت تشتمل على العديد من أشجار الفواكه، بالإضافة إلى نافورات المياه. وقد حرص الأهالي على تبييض (دهن) تلك المنازل باللون الأبيض للتخفيف من وطأة حرارة الشمس. وبصفة عامة كان الأهالي يهتمون بتزيين دورهم، ويحسنون اختيار الأثاث الذي كانوا ينفقون عليه كثيرا، ويعود الفضل في ذلك إلى حالة الثراء التي كان عليها معظم سكان المدينة. من ناحية أخرى، لم تقل طرقات كلوة في روعتها وجمالها عن تلك المنازل؛ فقد تميزت بجمالها ونظافتها وسعتها [١٠٢].

كما أشادت المصادر البرتغالية ببيوت ومنشآت ممبسة؛ فيذكر دامياو دي جويز أن منازل المدينة مبنية من الأحجار والملاط، كما أنها مزخرفة ومغطاة السقف، "تماما مثل المنازل البرتغالية" [١٠٣]. أما بربوزا فقد أخبرنا بأن دور تلك المدينة جميلة وعالية البنيان، وهي مبنية من الأحجار والكلس [١٠٤]. كذلك وجدنا بربوزا يشيد بطرقات ممبسة، قائلا "إن شوارع المدينة تباهي في جمالها وروعتها مثيلاتها في كلوة" [١٠٥].

وقد وصفت دور ماليندي وأبنيتها بأنها كانت جيدة البناء، كما أن تلك المنازل كانت مشيدة من الأحجار– كمثيلاتها في المدن الكبيرة– وتحتوي على النوافذ والشرفات. وقد وصفت

طرقاتها كذلك بأنها كانت جيدة [١٠٦]. وبالنسبة لسوفالة فقد تميزت منازلها بالارتفاع؛ حيث كانت تتكون أحيانا من ثلاثة أو أربعة طوابق. وكانت تلك المنازل قريبة من بعضها، "حيث يمكن للمرء أن يركض فوق شرفاتها". أما طرقات المدينة فقد وصفت بالضيق الشديد [١٠٧]. أما فيما يخص برافا فيؤكد بربوزا على روعة وجمال منازلها المشيدة كذلك من الأحجار، إلى جانب تزيينها بطلاء جميل [١٠٨].

بيد أن المؤرخين يشيرون إلى أن منازل موزمبيق لم تكن بنفس جودة مثيلاتها في المدن الكبرى، مثل كلوة وممبسة وماليندي؛ فنجد كاستنهيدا يذكر أن دور تلك المدينة كان يستخدم في بنائها القش وليس الأحجار [١٠٩]. وبحسب رواية دامياو فإن تلك المنازل كانت مبنية من الطين ومغطاة بالقش، إلا أن هذا المؤرخ يستثني القصر الذي كان يقيم فيه الشيخ (الحاكم) ومسجد المدينة، قائلا إنها أبنية حجرية ذات أسطح مستوية، كما كانت تشتمل على النوافذ والشرفات [١١٠].

من جانب آخر، وفيما يتعلق بطعام السكان على الساحل الشرقي، فقد أشار المؤرخون إلى أن الغذاء الرئيس لهؤلاء السكان كان يتمثل في حبوب الدخن والأرز، بالإضافة إلى اللحوم والأسماك [١١١]. ولا شك أن وقوع هذه المدن على سواحل البحر المحيط مباشرة جعل أهلها يمتهنون مهنة الصيد، فأصبح لديهم وفرة كبيرة في الثروة السمكية [١١٢].

أما عن الأسلحة التي كان يستخدمها السواحيليون، فمن خلال روايات المؤرخين يبدو لنا أنها كانت بدائية، ولم تكن لديهم أسلحة نارية أو مدافع كتلك التي كان يمتلكها البرتغاليون؛ ففي كلوة على سبيل المثال كان الجنود الذين أتوا صحبة الملك لزيارة القائد البرتغالي فاسكو مسلحين بالسيوف المقوسة *coutelas* والخناجر والسكاكين ذات المقابض المذهبة [١١٣]. الأمر نفسه ينطبق كذلك على أهالي ممبسة الذين كانوا مسلحين بالسكاكين والدروع عندما توجهوا بمراكبهم ناحية الأسطول البرتغالي [١١٤]. كما أن حامية وجنود موزمبيق الذين كانوا يتصدون للبرتغاليين– الراغبين آنذاك في الحصول على الماء بالقوة– كانوا مسلحين بالسهام والدروع الصغيرة والسكاكين والأقواس والرافعات [١١٥]. بينما يشير بربوزا إلى أن سكان مدينة مقديشو لم يكونوا يجيدون فن القتال، ويستخدمون فقط العصي والسهام للدفاع عن أنفسهم ضد الأعداء [١١٦]. وبالرغم من أن تلك الآلات والأدوات كانت بدائية وبسيطة إلا أنها كثيرا ما كانت تلحق الأضرار الكبيرة بالأعداء؛ ففي معرض حديثه عن الآلات والأدوات الحربية التي كان يستخدمها السكان

في منطقة جنوب شرق آسيا، يذكر المؤرخ تكسيرا أن البرتغاليين لم يواجهوا سلاحا أسوأ من تلك السهام المسمومة التي كان يستخدمها سكان الساحل الأفريقي، ويضيف هذا المؤرخ أنه رأى الكثير من الجنود البرتغاليين وهم يموتون من خدوش تلك السهام، مع معاناة رهيبة، "وبدون أمل أو مساعدة في التخلص من آلام تلك السهام" [١١٧].

وفيما يخص احتفالات السكان السواحيليين، فمن الإشارات المقتضبة التي وردت في روايات المؤرخين نستطيع أن نلحظ روح الفرح والبهجة التي كان سائدة بين هؤلاء السكان أثناء احتفالاتهم في مناسباتهم المختلفة؛ فالقائد فاسكو، الذي ظل مع جنوده في ماليندي لمدة تسعة أيام، يقول إنه خلال تلك الفترة كانت هناك احتفالات مستمرة داخل المدينة، وهناك ألعاب ومسابقات كانت تتم بين بعض السكان وهم يمتطون ظهور الخيول. كما كانت توجد العديد من الفرق الموسيقية التي لا تتوقف عن العزف والغناء [١١٨]. في حين أن جواو باروس يذكر أن أهالي موزمبيق كان من عاداتهم إظهار البهجة واللعب بطريق احتفالية أثناء جلبهم للماء، وقد تم الإشارة مسبقا إلى أن الماء كان عزيزا في تلك المدينة نظرا لندرته، والحصول عليه من المناطق المجاورة [١١٩].

## ٤. النشاط التجاري للمدن الساحلية

### أ. المراكز التجارية السواحيلية وأهم البضائع والسلع:

عند الحديث عن تجارة تلك المدن الساحلية وأهم السلع تبدو لنا سوفالة وهي متصدرة للمشهد؛ وذلك لأنها آنذاك كانت المصدر الرئيس للذهب- السلعة الأكثر أهمية على الساحل- الذي من أجل الحصول عليه كانت تأتي سفن التجار من كل مكان إلى هذه المنطقة [١٢٠]. ويذكر بربوزا أن مسلمي سوفالة تمكنوا منذ زمن طويل من تعزيز وجودهم على الساحل، وذلك بفضل سيطرتهم على تجارة الذهب المربحة، حيث كانوا يتحصلون على هذا المعدن النفيس من المناطق الأفريقية الداخلية [١٢١]. وقد عاين القائد البرتغالي بيدرو الفاريز كابرال بنفسه هذا الأمر أثناء مروره بالقرب من سواحل سوفالة؛ فقد تمكن من مهاجمة سفينتين تجاريتين والتحصل عليهما "دون كبير عناء"، وقد كانت تلك السفن ملكا للشيخ فوتيما cheik Fotaima- عم ملك ماليندي الصديق المقرب من البرتغاليين-، وكان يوجد على متنها كميات كبيرة من ذهب سوفالة [١٢٢].

والواقع إن الأخبار التي كانت قد وصلت للملك البرتغالي دوم مانويل- عند عودة أسطول كابرال إلى لشبونة- عن أهمية سوفالة من الناحية التجارية، وكونها مخزنا للذهب في المنطقة [١٢٣]، كان من الأسباب التي دفعت هذا الملك إلى إصدار الأوامر لفاسكو- أثناء رحلته الثانية للهند عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م- بالذهاب إلى هذه المدينة واستكشافها، والدخول مع حاكمها في مفاوضات لإقامة علاقات تجارية بين الجانبين [١٢٤]. ويضيف كوريا أن فاسكو قام بتنفيذ تلك الأوامر بمجرد بلوغه الساحل؛ إذ إنه لما وصل إلى موزمبيق أرسل من هناك سفينتين بقيادة بدرو ألفونسو داجوبار Pero Alphonso d'Aguiar باتجاه ساحل سوفالة، وقد حمل معه هذا القائد بعض البضائع التجارية، وفي مقدمتها أقمشة كمباي الشهيرة. وأضاف كوريا إلى أن البرتغاليين كانوا سيتحصلون على أرباح هائلة من وراء هذه البضائع؛ إذ إن الثوب الذي قيمته لا تتعدى ١٥٠ ريس *reis* [١٢٥] كان يباع في أسواق سوفالة بكمية من الذهب تصل قيمتها إلى ٧٥٠ ريس [١٢٦].

ونتيجة لوفرة الذهب في سوفالة بكميات هائلة، فإننا لا نستغرب حديث كوريا عن الهدايا الذهبية التي منحها ملك المدينة للبرتغاليين أثناء وصول فاسكو لمنطقة الساحل في رحلته الثانية؛ فقد أهدى الملك لفاسكو حزمة خيوط (عقد) محلى بخرز من الذهب- الذي يسمى لديهم *pingo*- كانت تزن ألف مثقال، كل مثقال كانت قيمته تصل إلى ٥٠٠ ريس، كما أن هناك عقدا آخر أرسله هذا الحاكم إلى الملك البرتغالي مانويل، وهو يزن ثلاثة آلاف مثقال، هذا فضلا عن عقد ثالث منح للقائد بدرو الفونسو- الذي كان يقود السفن البرتغالية- وصل وزنه إلى خمسمائة مثقال [١٢٧]. ويمكن لنا أن نقدر الثراء الذي كان عليه حاكم سوفالة وبلاده نتيجة امتلاك هذا المعدن النفيس إذا ما علمنا أن الضريبة السنوية التي فرضها البرتغاليون آنذاك على مدينة كلوة- ذات التجارة والاقتصاد المزدهر- كانت تصل إلى خمسمائة مثقال من الذهب؛ أي إنها تساوي فقط قيمة "العقد الذهبي" الذي منحه ملك سوفالة للقائد بدرو ألفونسو. كما أن هذا الكرم الملكي من قبل صاحب سوفالة لا شك أنه فتح شهية البرتغاليين للاستيلاء على هذه المدينة بالكلية، ومن ثم احتكار تجارة هذا الذهب [١٢٨].

وتعد ممبسة كذلك واحدة من أهم المراكز التجارية على الساحل عند وصول البرتغاليين للمنطقة؛ فيذكر كوريا أن البرتغاليين لما وصلوا إلى ميناء ممبسة لأول مرة وجدوها مدينة تجارية كبيرة، تماثل مدينة كلوة في الأهمية، حيث تقصدها السفن التجارية من كل مكان [١٢٩]. كما

وصف بربوزا المدينة بأنها "مخزن للبضائع التجارية" [١٣٠]. ويمكن لنا أن نتبين مدى وفرة المنتجات والبضائع في هذه المدينة من خلال حديث البرتغاليين، الذين قاموا بزيارتها وبعثوا بسفاراتهم لحاكم المدينة من أجل الدخول معه في علاقات سلمية، والسماح لهم بممارسة التجارة؛ فعندما وصل فاسكو إلى ممبسة- في أول رحلاته للساحل- قام بإرسال مبعوثين إلى صاحب المدينة ليؤكد له رغبته في أن يسود السلام بينهما. وقد أحسن الحاكم استقبال هذين الرجلين وسمح لهما بالقيام بجولة داخل بلاده، وفي أثناء عودتهما قام بإعطائهما عينات من الفلفل والقرنفل والقرفة والعنبر، "مؤكدا لهم أنهم يستطيعون حمل كل ما يحتاجون إليه من تلك السلع إن هي أعجبتهم" [١٣١]. أما رواية المؤرخ دامياو عن تلك السفارة فتشير إلى أن ملك المدينة أخبر فاسكو أنه سيجد في مدينته كل ما يتطلع للحصول عليه من التوابل الهندية، وجميع البضائع الأخرى بكميات كبيرة؛ بحيث إنه لن يحتاج للذهاب إلى أي مكان آخر من أجل شحن سفنه بمثل هذه السلع التجارية، وهو الأمر الذي كان سيجنبه الأخطار الكبيرة والصعاب، التي يمكن أن تواجهه خلال تلك الرحلة الطويلة والشاقة إلى بلاد الشرق [١٣٢]. من ناحية أخرى فإنه عندما اقتحم البرتغاليون ممبسة عاينوا بأعينهم الثراء والرخاء الذي تمتعت به هذه المدينة؛ فقد عثروا على كمية كبيرة من الملابس والأقمشة والذهب والفضة والنحاس والعاج والحرير والتوابل [١٣٣].

مهما يكن من أمر، فإن التفوق الذي حققته ممبسة في مجال التجارة يعود في جزء كبير منه إلى تنوع وقيمة السلع والبضائع التي وفرتها المدينة للتجار الوافدين إلى الساحل الأفريقي، سواء أكان مصدر تلك السلع هو ممبسة نفسها أو تلك التي تصل إليها من المناطق الداخلية. من ناحية أخرى، وفي سبيل الحصول على معدن الذهب النفيس فإن تجار ممبسة- إلى جانب تجار كلوة وماليندي- كانوا يذهبون بمراكبهم التي كانت تسمى *sembouk* [134] إلى سواحل سوفالة، حاملين معهم الملابس القطنية الشهيرة التي كانت تصل اليهم من بلاد الهند ليقايضوها بالذهب [١٣٥]. جدير بالذكر أنه قد توفرت لسكان ممبسة المواد الأولية اللازمة لبناء سفنهم، خاصة الأخشاب؛ إذ يذكر فاسكو أنه في نواحي ممبسة تنمو الكثير من الأشجار، التي تزود الأهالي بما يحتاجونه من أخشاب لصناعة صواري سفنهم [١٣٦].

ومع وصول البرتغاليين للمنطقة كانت مدينة كلوة لا تزال تحتفظ بكثير من رونقها وازدهارها الذي كانت عليه في القرون السابقة؛ فقد أشار كوريا إلى أن الربان المسلم الذي كان يرشد أسطول فاسكو دي جاما أخبرهم- بعد مغادرتهم لموزمبيق- بأنهم سيصلون إلى مدينة

عظيمة تسمى كلوة، وأنها ذات تجارة رائجة وثروة كبيرة. كما أن هذا الربان أخبر القائد البرتغالي بأنهم سيجدون في هذه المدينة كل ما يريدونه من شتى صنوف البضائع والسلع، التي كانت تصل إليها من مكة ومن السواحل الهندية [١٣٧]. وقد كانت هناك علاقات تجارية مميزة تربط هذه المدينة بسوفالة؛ حيث كانت سفن التجار كثيرا ما تذهب إلى هذا الساحل للحصول على الذهب، الذي كان يحمل بعد ذلك إلى البلدان العربية والإسلامية. من ناحية أخرى فإن جميع السفن التي كانت تتوجه إلى سوفالة- للحصول على الذهب- كان يلزمها الرسو بميناء كلوة، سواء في ذهابها أو في عودتها. من هنا فقد استطاعت تلك المدينة أن تستحوذ على الجزء الأكبر من تجارة الذهب في المنطقة [١٣٨]. ويضيف دامياو دي جويز أن أهالي كلوة "كانوا أصحاب تجارة رائجة"، وأنهم كانوا يذهبون بتجارتهم إلى كل مدن وموانئ الساحل الشرقي "وصولا إلى بحر العرب" [١٣٩].

أما بالنسبة لموزمبيق، فقد ذكر فاسكو أن التجارة هي المهنة الرئيسية لسكان هذه المدينة [١٤٠]. كما أن كوريا أشار إلى كثرة عدد السفن التجارية القادمة إلى موزمبيق من شتى البقاع، وأن تلك السفن كانت تحمل على متنها أنواعا كثيرة من السلع والبضائع التي كانوا يقايضونها في أسواق تلك المدينة بمنتجات أخرى، في مقدمتها الذهب والفضة والعاج. وأضاف كوريا أن تلك السفن كانت تقوم بدفع ضرائب كثيرة داخل ميناء موزمبيق، نظرا لكثرة ما تحمله من بضائع [١٤١]. من ناحية أخرى فإن المؤرخين البرتغاليين أشاروا إلى أن أهالي المدينة كانوا يذهبون بسفنهم الكبيرة إلى سوفالة للمتاجرة معها [١٤٢]، بيد أن هؤلاء المؤرخين لاحظوا أن تلك السفن- رغم كبر حجمها- كانت بدائية الصنع؛ فلم تكن تحتوي على مكونات مسمارية أو أسطح، وإنما يتم ضم وشد ألواحها معا عن طريق حبال (جدائل) مصنوعة من ألياف النخيل وقشرة جوز الهند. أما أشرعة تلك المراكب فكانت مصنوعة من أوراق النخيل "المضفرة مثل الحصير" والمتماسكة بإحكام. إلا أن الشيء الجدير بالملاحظة هو أن هذه المراكب كانت مزودة بالعديد من الأدوات الفلكية والجغرافية والملاحية التي تساعدها في الوصول لوجهتها، مثل البوصلة والأرباع والخرائط الملاحية [١٤٣].

وقد تميزت ماليندي بتجارتها المزدهرة [١٤٤]. ويذكر بربوزا أن هناك تجارة كبيرة كان يمارسها سكان المدينة في الملابس والذهب والعاج والنحاس وغيرها من البضائع. كما أشار بربوزا إلى ثراء مدينة برافا وأهلها، وذلك بفضل تجارتها المزدهرة، وأن البرتغاليين قد عاينوا

بأنفسهم هذا الأمر بعد استيلائهم عليها، وقيامهم بأسر وقتل عدد كبير من أهلها؛ فقد وجدوا بها كميات كبيرة من الذهب والفضة، فضلا عن العديد من السلع والبضائع الأخرى [١٤٥]. وعند حديثه عن مقديشو، قد خصص هذا المؤرخ الجزء الأكبر من كلامه لبيان الوضعية التجارية المميزة لها، قائلا إنها "مدينة تجارية من الطراز الرفيع" [١٤٦].

ويجب الإشارة في هذا السياق إلى أن المناطق الداخلية كانت تمثل مصدرا استراتيجيا للسواحيليين للحصول على ما يحتاجون إليه من السلع والبضائع؛ فبربوزا وكاستنهيدا يذكرون أنه رغم حالة العداء التي كانت سائدة بين سكان ممبسة وبين سكان الداخل الوثنيين– كما تم الإشارة إليه مسبقا– إلا أن ممبسة كانت تتحصل من هناك على ما تحتاجه من العسل والشمع والعاج [١٤٧]. كما أن القائد البرتغالي فاسكو دي جاما يذكر أن عددا كبيرا من تجار الداخل كانوا يفدون إلى ممبسة محملين بكميات كبيرة من معدن الحديد [١٤٨]. من ناحية أخرى كانت سوفالة تتزود بكميات كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة من المناطق الداخلية الوثنية المتاخمة لها [١٤٩]. كما أن بربوزا يذكر أن كميات كبيرة من العنبر كانت تصل كذلك لسوفالة من المناطق القريبة منها، حيث كان يعاد تصدير هذه السلعة بعد ذلك إلى الأسواق الهندية[١٥٠].

أما عن طريقة التعامل في البيع والشراء على الساحل، فقد أشار فاسكو إلى أن الأهالي داخل أسواق موزمبيق لم يكونوا يستخدمون العملات في معاملاتهم التجارية، وإنما كانوا يقايضون السلع التي يحتاجون إليها بالذهب والفضة [١٥١]. كما أن جاسبار كوريا يذكر أن كل شيء كان يباع في أسواق سوفالة مقابل الذهب. حيث كانوا يقومون بداية بعملية فرز للبضائع من أجل جمع كل سلعة على حدة، ثم يقومون بتقدير هذه السلع ومن ثم دفع قيمتها بوحدات صغيرة من الذهب. وأشار هذا المؤرخ إلى أن البرتغاليين لما أرادوا المتاجرة في سوفالة كانوا يقايضون بضائعهم مع سكان هذه المدينة بقطع ذهبية "تشبه حبات المسبحة". وهذا بلا شك خير دليل على مدى وفرة هذين المعدنيين الثمينين في مدن الساحل الشرقي [١٥٢].

**ب. التجار المسلمون على الساحل الأفريقي:**

استقبل الساحل الشرقي لأفريقيا منذ زمن طويل جاليات كبيرة من التجار المسلمين الذين احتكروا تجارة هذا الساحل، وكانوا بمثابة همزة الوصل بين تلك المدن الساحلية وبين عالم المحيط الهندي، كما كان عدد كبير من هؤلاء التجار يقيمون لفترات زمنية طويلة داخل تلك المدن [١٥٣]. كما أن علاقات هؤلاء التجار المسلمين الوافدين مع السكان المحليين لهذا الساحل

ازدادت قوة وترابطا بمرور الوقت بعدما أقدم هؤلاء التجار على التزاوج من النساء المحليات؛ فقد أشار كوريا- أثناء حديثه عن قدوم شيخ موزمبيق مع مجموعة من رعيته لمقابلة القائد البرتغالي- إلى أن هؤلاء المسلمين كانوا ذوي بشرة سمراء، بيد أن جزءا منهم كان "ذا بشرة فاتحة"، ويرجع هذا المؤرخ السبب في ذلك إلى أن هذه المجموعة تعد من "المولدين"، الذين نشأوا نتيجة تزاوج التجار المسلمين القادمين من البلدان الإسلامية- بصفة خاصة الهنود الكوجراتيين المستقرين في هذه المدينة منذ فترة طويلة- مع النساء المحليات الوثنيات [١٥٤].

والواقع أن حكام الساحل كانوا يعتمدون في اقتصادهم على ما تدره تلك التجارة المربحة من ضرائب وجمارك، لذلك فقد أحسنوا استقبال هؤلاء التجار القادمين إلى بلادهم وعاملوهم أحسن معاملة ولم يرضوا بوقوع ظلم عليهم. ولعل الكلمات التي ذكرها حاكم سوفالة للبرتغاليين الراغبين في ممارسة التجارة مع بلاده توضح لنا هذا الأمر؛ فقد ذكر لهم أنه يعامل جميع التجار الواصلين إلى بلاده بالمثل، ولا يفرق بين طائفة وأخرى، "لأن هؤلاء التجار هم الذين يجلبون لبلاده الثروات والخير الكثير" [١٥٥].

حقيقة الأمر، إن فاسكو دي جاما كان قد قابل عددا كبيرا من التجار المسلمين في موزمبيق- المحطة الأولى للبرتغاليين على الساحل الشرقي لأفريقيا، كما إنه علم بوجود علاقات تجارية وثيقة كانت تربط هذه المدينة مع بلاد الهند والبلدان العربية، وأن هناك كميات كبيرة من البضائع والسلع كانت تتبادل بين الطرفين [١٥٦]. علما بأن الأسطول البرتغالي لما وصل قبالة ساحل موزمبيق، كانت توجد بميناء هذه المدينة أربع سفن تخص التجار المسلمين، وهي محملة بالذهب والفضة والقماش والقرنفل والفلفل والزنجبيل، كما كان على متنها كميات كبيرة من اللؤلؤ والمرجان. وقد كان التجار المسلمون يأتون بجميع هذه السلع لموزمبيق باستثناء الذهب، الذي كان مصدره الساحل الأفريقي [١٥٧]. وقد وصف فاسكو هؤلاء التجار بأنهم أصحاب بشرة بيضاء، وذلك بخلاف سكان البلاد الأصليين ذوي البشرة السمراء الداكنة [١٥٨]. جدير بالذكر أنه عند وصول السفن البرتغالية لأول مرة إلى ساحل موزمبيق ظن شيخ المدينة وأهلها أن هؤلاء القادمين كانوا أتراكا مسلمين، فقاموا بالترحيب بهم، لكن بعدما تبين لهم أن هؤلاء الوافدين إنما هم مسيحيون غربيون تغيرت تلك المعاملة الحسنة وناصبوهم العداء، ولم يألوا جهدا في الإيقاع بالبرتغاليين [١٥٩].

ويذكر القائد البرتغالي فاسكو أن هؤلاء التجار المسلمين قد حذروه من خطورة مواصلة الرحلة إلى بلاد الهند، نظرا للصعوبات الملاحية التي سيواجهونها في طريقهم، ومن ذلك ضحالة المياه في العديد من المراسي [١٦٠]. وربما كان دافع التجار المسلمين إلى هذا القول هو محاولتهم إثناء البرتغاليين عن مواصلة طريقهم إلى الساحل الهندي، ومن ثم مزاحمتهم في تجارة المنطقة، وإنهاء الهيمنة المطلقة التي كان يفرضها التجار المسلمون على تجارة الهند والساحل الأفريقي. والواقع أن الفكرة التي كانت سائدة لدى البرتغاليين هي أن هؤلاء التجار المسلمين الذين كانوا يقيمون في المدن الساحلية هم السبب الأول في الروح العدائية التي أظهرها حكام موزمبيق وكلوة وممبسة ضد البرتغاليين، حيث إنهم لم يدخروا جهدا من أجل إيغار صدور حكام الساحل ضد البرتغاليين، محذرين إياهم من خطورة هؤلاء الغربيين الذين أتوا للسيطرة على مدنهم [١٦١].

من جانبه يؤكد كاستنهيدا على وفود طائفة كبيرة من التجار المسلمين الهنود (الكوجراتيين) إلى موزمبيق، وكذلك الأمر بالنسبة للتجار العرب القادمين من سواحل البحر الأحمر؛ فقد كان هؤلاء التجار يبحثون عن الذهب، الذي كانت توجد منه كميات كبيرة في هذه المدينة [١٦٢]. كما أشار دامياو إلى أن هؤلاء التجار المسلمين الوافدين من بلدان مختلفة كانوا يمثلون الفئة الأكثر أهمية داخل موزمبيق، أما بالنسبة للسكان المحليين (الأصليين) فقد كانوا زنوجا، ولم يصلوا للمكانة والمنزلة التي كان عليها هؤلاء التجار [١٦٣]. كما أن هذا المؤرخ يذكر أن جالية التجار المسلمين داخل كلوة كانت فئة منعمة، تتميز بالغنى والثراء [١٦٤].

أما المؤرخ بربوزا فيشير إلى أن تجار الجزيرة العربية كانوا كثيرا ما يفدون إلى الساحل الأفريقي ويقيمون فيه لفترات طويلة، وكانوا يبحرون في زوارق صغيرة باتجاه ممبسة وكلوة وماليندي [١٦٥]. ويضيف هذا المؤرخ أن التجار المسلمين كانوا يأتون بسفنهم من كمباي إلى ماليندي حاملين معهم الملابس الهندية الشهيرة وكميات من القمح، وفي المقابل كانوا يتحصلون على الذهب والعاج، وأن هناك أرباحا كبيرة كانت تتحقق للطرفين [١٦٦]. من جهته يذكر بيرس أن بضائع كلوة وماليندي وبرافا ومقديشو وممبسة كانت تصل إلى البلدان العربية، وفي مقابل ذلك كانت تلك المدن الساحلية تتحصل على الخيول العربية المميزة [١٦٧]. كما أن جاسبار كوريا يخبرنا بأن ملك ماليندي لما أراد حمل هدية قيمة إلى القائد البرتغالي فاسكو، قام باستدعاء تجار المدينة على وجه السرعة، ونجح في أن يجمع مائة قطعة من المخمل (القطيفة) ذات

الأوان الجميلة القادمة من مكة، بالإضافة إلى قطع من الساتان والدمشقي القادمة من تلك المدينة العربية نفسها [١٦٨].

وإلى ميناء مدينة مقديشو كانت تأتي السفن من كمباي الهندية وعدن العربية محملة بشتى أصناف السلع والبضائع، وفي مقدمتها التوابل الهندية الشهيرة. وفي المقابل فقد كان هؤلاء التجار الهنود والعرب المسلمون يحملون من أسواق مقديشو كميات كبيرة من الذهب والعاج وعسل النحل، وغيرها من المنتجات التي كانت تحقق لهم الأرباح الطائلة [١٦٩]. ويذكر كوريا أن بمدينة بربرة تجار مسلمون (مخادعون)، وهم الذين كانوا موجودين بمدينة قاليقوط[١٧٠] الهندية عندما وصل إليها فاسكو دي جاما في رحلته الأولى، وقد لعبوا دورا مهما في اتخاذ الزامورين[١٧١] موقفا عدائيا ضد البرتغاليين. فلما وصلوا إلى بربرة أخبروا سكانها بما دار بين الفريقين، من أجل إثارة وتحفيز حاكم المدينة ضد البرتغاليين. ويبدو أن جهودهم قد أتت بثمارها؛ فبعد سماع السلطان لحديث هؤلاء التجار قام بمراسلة القائد البرتغالي دييجو دياز يسأله عن هويتهم وعن سبب قدومهم إلى بلاده، ورغم أنه أظهر لهم بداية علامات الترحيب والصداقة إلا إنه كان يعمل في الحقيقة على استدراج هؤلاء البرتغاليين ومحاولة الإيقاع بسفنهم. وقد نجحت خطته بمهاجمة الأسطول البرتغالي، وتكبد دياز خسارة كبيرة في جنوده بالإضافة إلى فقد البضائع، وتمكن بصعوبة من الإفلات والإبحار بعيدا عن ساحل المدينة [١٧٢].

جدير بالذكر أنه مما ساعد على تطور العلاقات بين الساحل الهندي والساحل الشرقي لأفريقيا تلك الرغبة الملحة التي كانت لدى التجار الهنود من أجل الحصول على الذهب والعاج الأفريقي؛ وقد كان لهذا المنتج الأخير– كما أخبر بربوزا– سوق رائج على الساحل الهندي؛ فكان يباع المائة ثقل منه بما يوازي خمس أو ست دوكات في أسواق كمباي [١٧٣]. وفي مقابل ذلك حمل تجار كمباي معهم الملابس القطنية المزركشة والبيضاء والزرقاء، بالإضافة إلى الجواهر والمسابح والخرز ذات الألوان الرمادية والحمراء والصفراء [١٧٤]. كما يذكر باروس أن القرنفل والفلفل وغيرها من أنواع التوابل كانت كذلك من أهم البضائع التي حملها تجار كمباي إلى مدينة ماليندي [١٧٥].

بيد أن الظهور الهندي على الساحل الأفريقي لم يقتصر على التجار المسلمين فحسب، وإنما كان هناك تواجد كذلك لفئة التجار الهندوس؛ فقد ذكر كاستنهيدا أنه بماليندي كان يوجد عدد ليس بالقليل من هؤلاء التجار الهندوس (الوثنيين) القادمين من مملكة كمباي الهندية.

ويصفهم هذا المؤرخ بأنهم "تجار عظماء"، وأنهم قد أتوا إلى هذه المدينة للحصول على السلعة الأهم على الساحل وهي الذهب، هذا إلى جانب المتاجرة في بعض الأصناف التجارية الأخرى كالعنبر والعاج والشمع. وفي مقابل ذلك فقد كان هؤلاء التجار يجلبون لسكان ماليندي الأقمشة القطنية والنحاس والفضة. ثم يقول كاستنهيدا إن هذه العلاقات كانت مربحة لكلا الطرفين [١٧٦]. الأمر نفسه أشار إليه كذلك باروس، ذاكرا أن فاسكو لما كان بماليندي أتى لزيارته مجموعة من التجار المسلمين القادمين من كمباي، ومن بين هؤلاء التجار كان يوجد عدة أشخاص يسمون *banians*، "وهم وثنيون يعيشون في كمباي إلى جانب المسلمين" [١٧٧].

أما فاسكو نفسه فإنه أشار إلى هؤلاء التجار باعتبارهم مسيحيين، وأنه أثناء قدوم البرتغاليين إلى ميناء ماليندي لاحظوا وجود أربع سفن تخص هؤلاء التجار. كما أن فاسكو يذكر أن هؤلاء التجار أتوا عديد المرات إليهم لآداء صواتهم معهم. ويضيف هذا القائد أن لغة هؤلاء التجار كانت مختلفة عن لغة المسلمين، وإن كانوا قد اكتسبوا عددا من المفردات العربية، وذلك بحكم علاقاتهم ولقاءاتهم الدائمة مع هؤلاء المسلمين [١٧٨]. ثم يصفهم لنا فاسكو بأنهم داكنو البشرة، ويرتدون ملابس ضيقة وقصيرة، ولديهم لحى طويلة، وشعرهم طويل جدا ويضعونه في ضفائر، كما أنهم من عاداتهم عدم أكل لحوم البقر. ولعل هذا الوصف الأخير يجعلنا نعتقد أن هؤلاء كانوا هندوسا وظن فاسكو بالخطأ أنهم مسيحيون، أو ربما أختلق هذه القصة قصدا من أجل التأكيد على أن ماليندي– حليفه السياسي الأول والأوحد حتى تلك اللحظة في المنطقة– هي مدينة تفتح أيديها وأبوابها دائما لاستقبال المسيحيين وتحسن معاملتهم [١٧٩].

والشيء الجدير بالذكر في هذا المقام هو أن البرتغاليين كانوا يفرقون في التعامل بين التجار المسلمين القادمين من منطقة الكوجرات[١٨٠] الهندية وبين التجار المسلمين القادمين من البلدان العربية؛ فلم يلجأوا إلى استخدام القوة إلا مع هؤلاء الآخرين؛ من ذلك ما يذكره جواو دي باروس من أن القائد كابرال– وهو في طريق عودته من الساحل الهندي باتجاه الساحل الأفريقي– تقابل مع إحدى السفن التجارية القادمة من ميناء ماليندي والمتوجهة إلى ميناء كمباي الهندي، وقد كانت هذه السفينة الممتلئة بالسلع والبضائع الثمينة ملكا لأحد التجار المسلمين الأغنياء من الكوجرات ويدعى ملك يوبي Malicupii. فما كان من القائد كابرال إلا أن أحسن التعامل مع هذا التاجر، ولم يتعرض له بأذى، وتركه يمر إلى وجهته، ذاكرا له أنه لو كان مسلما قادما

من البلدان العربية فإن المعاملة كانت ستختلف، "لأن هؤلاء التجار العرب هم العدو بالنسبة للبرتغاليين" [١٨١].

ويبدو أن التجار السواحيليين كانوا يبحرون أحيانا بعيدا باتجاه المحيط الهندي ومدنه التجارية؛ من ذلك ما يذكره تومي بيرس عن توجه مجموعة من تجار كلوة وماليندي وممبسة ومقديشو إلى مدينة ملقا- الواقعة في شبه جزيرة الملايو- للمشاركة في التجارة المزدهرة لهذه المدينة. وأغلب الظن أن هؤلاء التجار المذكورين لم تكن لهم سفن خاصة يبحرون بها، وإنما كانوا يصطحبون التجار الكوجراتيين على متن سفنهم للوصول لميناء هذه المدينة [١٨٢].

**ج. أهم موانئ المدن السواحيلية:**

مما لا شك فيه أن الأهمية التجارية الكبيرة التي اكتسبتها مدن الساحل الشرقي لأفريقيا كان يقف وراءها العديد من العوامل، التي كانت سببا في جذب هذا الكم الهائل من التجار القادمين إليها من مناطق عدة كبلاد الهند وشبه الجزيرة العربية والخليج الفارسي. وإذا كانت السلع والبضائع الأفريقية- ذات القيمة الكبيرة- كالذهب والفضة والعاج تأتي في مقدمة هذه الأسباب، فإن هناك عوامل أخرى تبدو ضرورية لاستمرار حركة التجارة، من ذلك تمتع غالبية تلك المدن بموانئ ومراس جيدة ومهيأة لاستقبال السفن التجارية الكبيرة الحجم. فقد أشار فاسكو دي جاما إلى الشهرة التجارية الكبيرة التي نالها ميناء ممبسة قائلا إنه في كل يوم كان يدخل إليه عدد كبير من المراكب التجارية [١٨٣]. أما بربوزا فقد ذكر أن المدينة تشتمل على "ميناء جيد"؛ بحيث إنه كان يستقبل السفن القادمة من كمباي وجزيرة العرب وماليندي، كما أنه كان نقطة الانطلاق للسفن الراغبة في زيارة موانئ زنجبار ومافيا وباندا [١٨٤]. وكاستنهيدا كذلك يذكر أن بممبسة مرفأ جيدا كانت تتردد عليه كثير من السفن [١٨٥]. ومن باب حماية مدخل المدينة من ناحية البحر، وإيجاد حالة من الأمن والاستقرار، فقد أنشأت سلطات المدينة بمدخل الميناء برجا به مجموعة من الحراس، الذين كانوا مزودين بالمدافع، كما أنه كانت توجد قلعة صغيرة بجوار البحر للسبب نفسه [١٨٦].

من ناحية أخرى، أشار كاستنهيدا إلى جودة ميناء موزمبيق [١٨٧]. كما وصفه دامياو بالميناء المتميز [١٨٨]. أما كوريا فقد أشاد بهذا الميناء وبعمق مياهه، الأمر الذي يجعله صالحا لاستقبال السفن الكبيرة، هذا بالإضافة الى أنه كان محميا من الرياح [١٨٩]. بينما يقول بربوزا إن هذا الميناء كان يعد محطة رئيسة للتجار المسلمين، الذين كانوا يبحرون من هناك بسفنهم

باتجاه سوفالة وأنجوش [١٩٠]. وكذلك أشار كوريا إلى عدد السفن التجارية الكثيرة التي كانت ترسو بميناء سوفالة [١٩١]. ويبدو أنه كانت من العادات المرعية في هذه المدينة أنه بمجرد وصول التجار إلى هذا الميناء فإنهم كان يتوجب عليهم التوجه بداية بهداياهم إلى حاكم المدينة، وأن أي شخص لا يستطيع الوقوف بين يدي هذا الحاكم دون تقديم هذه الهدية مهما كان مقدارها وقيمتها، "حتى لو كانت ليمونة" [١٩٢]. ويعد ميناء بربرة كذلك من الموانئ المميزة على الساحل؛ فقد كان معدا ومجهزا لاستقبال السفن والقوارب التي كانت تأتي من أماكن مختلفة [١٩٣].

بيد أن كاستنهيدا أشار إلى أن ماليندي لم تكن تمتلك ميناء جيدا كبقية المدن الأخرى؛ حيث إن المكان (الميناء) كان عبارة عن مجال وامتداد مفتوح ومكشوف، لذلك كانت السفن التي ترسو فيه تعاني أحيانا من الرياح والتيارات، كما أنه يوجد بالساحل رصيف وشعاب مرجانية من الصخور، وهو الأمر الذي جعل السفن التجارية مجبرة على الرسو بعيدا عن الشاطئ بمسافة كبيرة [١٩٤]. ولقد أشار جاسبار كوريا إلى مثل هذا الأمر بقوله إن حاكم ماليندي– الذي أذن للأسطول البرتغالي بالدخول إلى ميناء المدينة في الوقت المناسب له– أرسل إلى فاسكو أحد الربابنة، حتى يرشد السفن للدخول إلى الميناء، "لأن هناك شعاب مرجانية خطيرة كانت توجد في هذا المرفأ" [١٩٥].

## ٥. الزراعة والثروة الحيوانية في المدن الساحلية

تعتبر الزراعة واحدة من أهم المهن التي كان يمارسها السكان في معظم المجتمعات السواحيلية؛ فهي كانت تعد من أهم مصادر العيش داخل هذا المجتمع، كما أن العدد الأكبر من السكان في تلك المجتمعات كان يتشكل من المزارعين، هذا فضلا عن أن مجموعة كبيرة من السكان كانوا يرتحلون إلى المناطق والمدن الداخلية من أجل الاشتغال بمهنة الزراعة وفلاحة الأرض [١٩٦].

وقد سجل لنا المؤرخون البرتغاليون أهم المحاصيل والفواكه التي انتشرت زراعتها بهذه المدن الساحلية، كما أنهم أشاروا إلى العديد من أنواع الطيور والحيوانات التي وجدت في هذه الأماكن؛ فيشير فاسكو ودامياو إلى أن تربة كلوة تميزت بالغنى والخصوبة، لذلك كانت تنتج كميات وفيرة من المحاصيل والغلال، ولعل من أهمها البصل، الذي "تميز بكبر حجمه". كما أنه كانت توجد بالمدينة خراف ذات ذيول كبيرة جدا "لدرجة إننا لم نر مثيلا لها"، كما كان يوجد

ثيران بلا قرون يوضع على ظهورها نوع من السروج. هذا فضلا عن العديد من أنواع الطيور والحيوانات الأخرى [١٩٧].

من ناحيته يذكر المؤرخ البرتغالي بربوزا أن ممبسة تشتمل على العديد من أنواع الخضروات والفواكه، ومن المحاصيل التي أشار إليها الأرز والدخن، أما عن الفواكه فقد ذكر البرتقال الحلو والمر والرمان والليمون والتين الهندي. كما أنه أخبرنا بأن المدينة بها وفرة في "الأغنام ذات الذيول الضخمة والماعز والأبقار وكثير من أصناف الطيور والدواجن السمينة" [١٩٨]. ويصف مواطنه دامياو ممبسة بأنها مدينة "مليئة ومغطاة بالخضرة"؛ حيث يوجد بها كثير من الفواكه والخضروات "التي تشبه مثيلاتها في البرتغال"، كما أن بها وفرة في القمح وكثرة في الماشية [١٩٩]. أما فاسكو فيخبرنا بأن المدينة يزرع بها قصب السكر والبرتقال والأترج [٢٠٠].

وبالنسبة لماليندي فقد كانت كل المنطقة المحيطة بها مزروعة بأشجار النخيل ومحاصيل الدخن والعديد من أصناف الخضروات [٢٠١]. كما ان البرتغاليين أثناء مرورهم بماليندي– عقب عودتهم من بلاد الهند في أولى رحلاتهم– حملوا من تلك المدينة كميات كبيرة من البرتقال لمداواة مرضاهم، "نظرا لحاجة هؤلاء المرضى لهذه الثمرة من أجل التعافي"، خاصة وأن أشجار البرتقال كانت منتشرة بكثرة في أرجاء المدينة [٢٠٢]. ويبدو كذلك أنه كانت توجد وفرة في الأغنام "ذات الذيول الضخمة" والدواجن بهذه المدينة، حيث إن سكانها قاموا بحمل كميات كبيرة من الدجاج والبيض لبيعها للبرتغاليين [٢٠٣].

وفي إشارة منه إلى وفرة الأغنام بمقديشو، يذكر بربوزا أنه داخل هذه المدينة كان يوجد كثير من اللحوم. هذا فضلا عن وفرة في محصولي القمح والشعير، إلى جانب العديد من أنواع الفواكه، لذلك فإن هذا المؤرخ وصف هذا المكان بأنه "غني جدا" [٢٠٤]. ويبدو أن ساحل سوفالة كان موطنا للعديد من أنواع الحيوانات البرية والمتوحشة؛ فيذكر بربوزا أنه في سهول وضواحي سوفالة كان يوجد عدد كبير من الأفيال التي اتسمت بضخامتها وبتوحشها، حتى أن السكان كانوا لا يستطيعون ترويضها والتعامل معها. كما وجد بالمدينة العديد من أنواع الحيوانات الأخرى كالأسود والنمور والفهود الجبلية [٢٠٥].

أما عن موزمبيق فقد ذكر فاسكو أنه يوجد بها كثير من أشجار النخيل، التي تنتج "ثمارا كبيرة مثل البطيخ"، واللب الداخلي لهذه الثمرة هو الذي يؤكل، وطعمه مثل البندق. ولا شك أن فاسكو يتحدث هنا عن ثمرة جوز الهند، التي اعتقد بالخطأ أنها أشجار نخيل [٢٠٦]. كما أنه كان

يزرع بهذه المدينة كميات كبيرة من البطيخ والخيار [٢٠٧]. هذا إلى جانب وجود كثير من الأفيال الضخمة والحيوانات البرية في المناطق المحيطة [٢٠٨]. بيد أن هذه المدينة كانت تعاني نقصا في اللحوم وبعض السلع الغذائية الرئيسة؛ إذ إن البرتغاليين لما وصلوا إلى موزمبيق- أثناء رحلتهم الأولى إلى هذا الساحل- وأرادوا الحصول على أبقار وأغنام وبعض السلع الغذائية لإطعام الجنود لم يجدوا هناك سوى الذرة- التي كانت تعد الغذاء الرئيس للسكان إلى جانب الأسماك- وأن الأعداد القليلة الموجودة من الأبقار والأغنام كانت تتحصل عليها هذه المدينة من المناطق المجاورة [٢٠٩]. كما أن بيدرو الفاريز كابرال- قائد الحملة البرتغالية الثانية باتجاه الهند- بعد عودته من الساحل الهندي مكث بالمدينة عدة أيام، ولما قرر الرحيل باتجاه لشبونة لم يجد في أسواق موزمبيق ما يحتاجه جنوده من زاد وطعام، لذلك قام شيخ المدينة بالإتيان بعدد من الأبقار والماعز من "أماكن بعيدة" وأرسلها إلى القائد كابرال [٢١٠].

## خاتمة البحث

تناول هذا البحث بالدراسة أوضاع وأحوال الساحل الشرقي لأفريقيا عند وصول البرتغاليين لمنطقة المحيط الهندي، وذلك من خلال الروايات التي سجلها لنا المؤرخون البرتغاليون المعاصرون لحركة الكشوفات الجغرافية البرتغالية. ومن خلال هذا العرض لجغرافية مدن الساحل الشرقي، ولحكامه وسكانه السواحيليين وتجارته يمكن أن نخرج بعدد من الحقائق والمعلومات المهمة، التي يمكن إجمالها فيما يلي:

- تبوأت مدن الساحل الشرقي لأفريقيا أهمية من الدرجة الأولى بفضل موقعها الاستراتيجي المطل مباشرة على المحيط، والمؤدي إلى عالم المحيط الهندي والشرق الأوسط، كما أن هذا الساحل يعد بمثابة البوابة التي تربط بين المحيطين الأطلنطي والهندي، لذلك فقد كان الوصول إليه هو بداية النجاح الحقيقي للبرتغاليين لبلوغ الساحل الهندي.
- ظلت المناطق الأفريقية الداخلية تمثل مصدر قلق وتهديد للسكان السواحيليين، الذين كانوا في حروب دائمة مع هؤلاء الوثنيين، لكن بالرغم من ذلك فقد مثلت تلك المناطق ظهيرا تجاريا وزراعيا مهما للسواحيليين، الذين تمكنوا من الحصول على أهم البضائع التجارية كالذهب والفضة والعاج، فضلا عن جلب العديد من السلع والمحاصيل الزراعية.
- كان الساحل الشرقي لأفريقيا عند قدوم البرتغاليين- بحسب روايات المؤرخين- إسلاميا بامتياز؛ فكل مدنه وسكانه يدينون "بالملة المحمدية"، وهو أمر كان مفاجئا بالنسبة للبرتغاليين، ولعل هذا الأمر هو ما يفسر الموقف العدائي الذي اتخذه هؤلاء الأوربيون ضد معظم المدن الساحلية، كما أنهم سعوا إلى طرد التجار المسلمين من هذه المنطقة.
- تمتع حكام الساحل الشرقي لأفريقيا بنفوذ كبير، كما أنهم كانوا طبقة ثرية ومنعمة بفضل الأموال الضخمة التي جلبتها لهم التجارة. هذا الأمر يظهر جليا من خلال المواكب والاحتفالات الكبيرة التي كانت تصاحب خروج هؤلاء الحكام في مناسباتهم المختلفة. كما أنه كان واضحا من روايات المؤرخين أن هناك علاقات ودية كانت تربط هؤلاء الملوك- أو الشيوخ- برعاياهم. هذا فضلا عن أنهم لم يكونوا منعزلين عن رعيتهم، خاصة في المواقف الحاسمة التي كانت تتعرض لها ممالكهم، وإنما كانوا يستأنسون بمشورة أهل الرأي.
- اتسمت حياة السكان السواحيليين في معيشتهم بمستوى من الرفاهية والرقي، وقد ظهر هذا الأمر من خلال الملابس الفخمة والجميلة التي كان يرتديها هؤلاء السكان؛ مثل الأقمشة

القطنية الشهيرة التي كانت تأتي إليهم من كمباي الهندية، إلى جانب الأقمشة الحريرية والصوفية. كما أن المنازل التي كانوا يقيمون فيها تميزت بجودة البناء؛ حيث كان أغلبها مبنيا بالأحجار والكلس، وكانت تتكون من أكثر من طابق، وتشتمل على العديد من النوافذ والشرفات، وتحيط بها الحدائق، هذا فضلا عن الطلاء الجميل الذي كان يزينها. وبصفة عامة كانت روح الفرح والبهجة هي السائدة بين هؤلاء السكان، خاصة أثناء الاحتفال بمناسباتهم المختلفة.

- كانت التجارة تمثل العمود الفقري لاقتصاد مدن الساحل الشرقي لأفريقيا؛ فهي المصدر والمورد الرئيس في دخل هذه المدن، كما أنها السبب الرئيس في الرخاء والثراء والنهضة الكبيرة التي شهدتها معظم تلك المدن في ذلك الوقت. ولا شك أن امتلاك هذا الساحل لمعدن الذهب النفيس، بالإضافة إلى الفضة والعاج والعنبر، كان دافعا للتجار العرب والهنود لارتياد موانئ هذا الساحل للحصول على هذه البضائع الثمينة. في الوقت نفسه، لعبت التجارة بلا شك دورا مهما في تطور المجتمع السواحيلي اجتماعيا وثقافيا، وذلك من خلال التداخل والاتصال الحضاري ما بين سكان تلك المدن وبين الجاليات العربية والإسلامية الوافدة إليهم من شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس ومنطقة الكوجرات الهندية، وهي مناطق ذات تاريخ حضاري عريق.

## (ملحق ١)
## خريطة لأهم مدن الساحل الشرقي لأفريقيا

نقلا عن:

حسين مؤنس، *أطلس تاريخ الإسلام*، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧.

**ملحق (٢)**

**خريطة توضح الرحلات التجارية من السواحل العربية باتجاه الساحل الأفريقي**

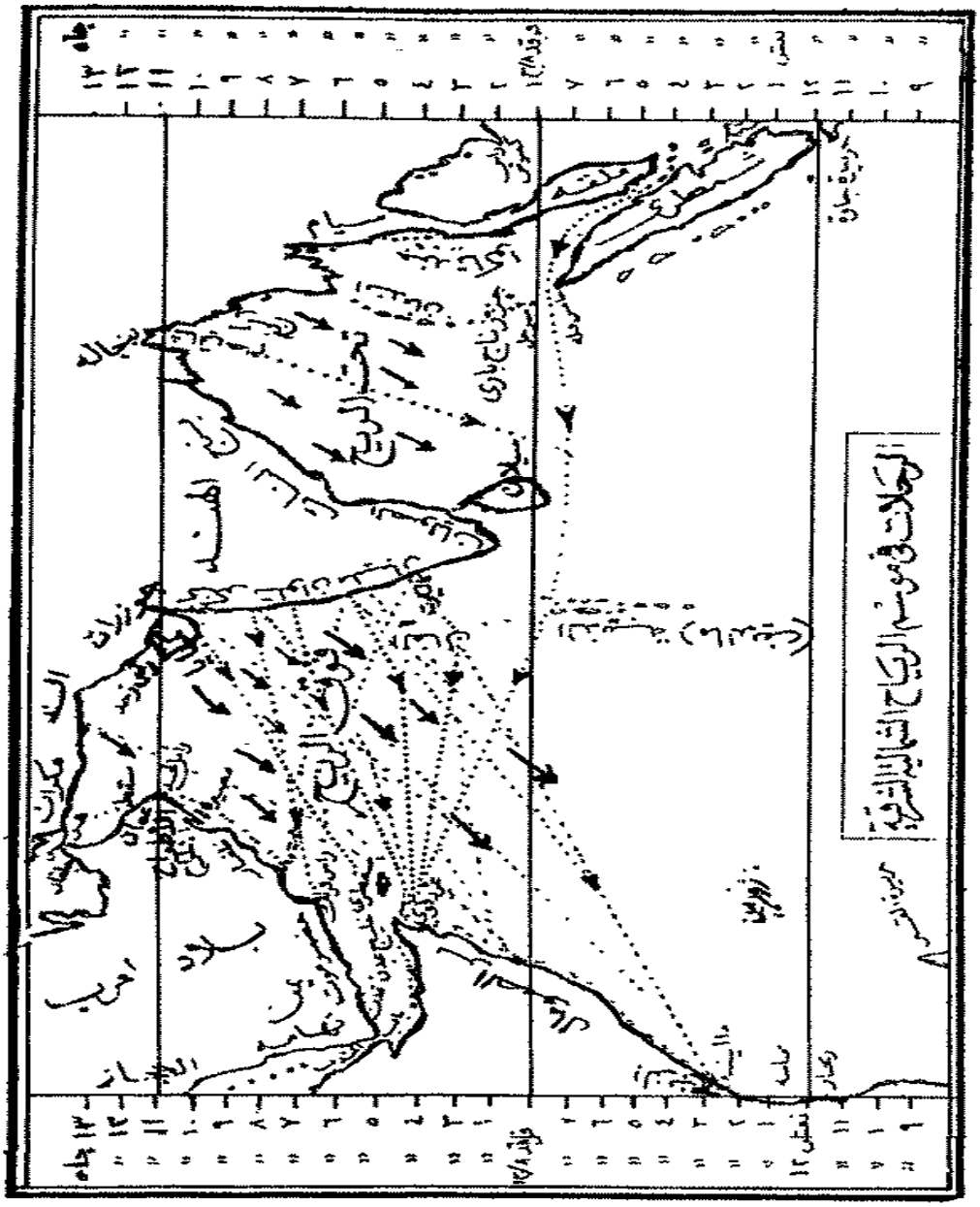


نقلا عن: حسن شهاب، *أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي*، إصدار مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، ٢٠٠١م.

**ملحق (٣)**

**خريطة توضح خط سير الرحلات التجارية العائدة من الساحل الأفريقي إلى السواحل العربية**

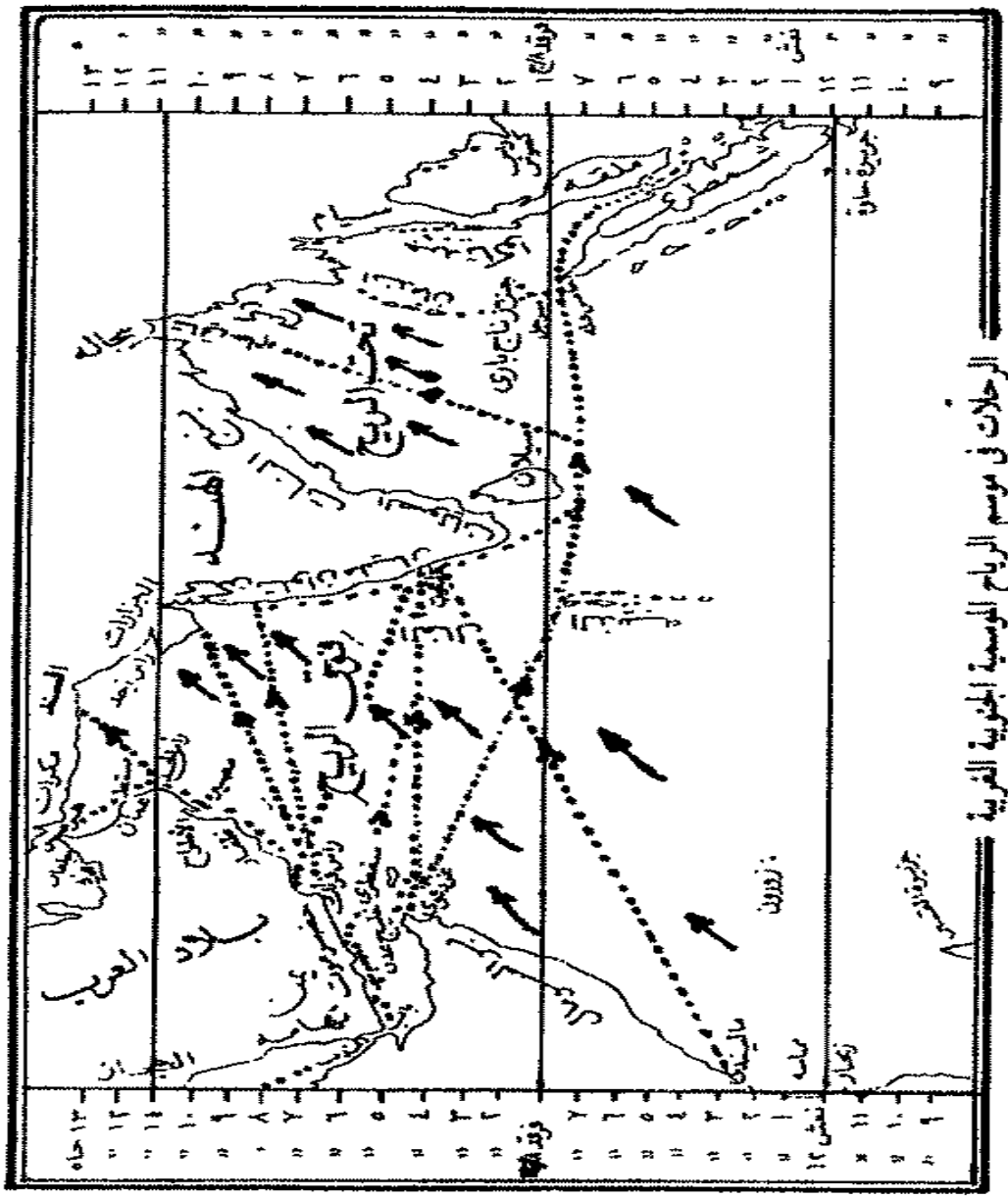


نقلا عن: حسن شهاب، *أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي*، إصدار مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، ٢٠٠١م.

## الهوامش:

١- يطلق اسم "أرض الزنج" على الأراضي الساحلية بشرق أفريقيا، وهي المنطقة الممتدة من الصومال حتى موزمبيق. أما معنى كلمة زنج *zanj* فهو على الأرجح مستمد من الكلمة الفارسية المماثلة لها، التي تعني "الأسود". وقد أشار مؤرخو الأغريق القدماء إلى أن الزنج الذين كانوا يعيشون في سواحل شرق أفريقيا قد شيدوا مدنا ساحلية كانت تربطها علاقات تجارية وثيقة بشبه الجزيرة العربية والهند. أنظر: جوان جوزيف، *الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء*، (ترجمة) مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ١٣١.

2 D. Agius, *Classic ships of Islam from Mesopotamia to the Indian Ocean*, Brill, Boston, 2008, p. 99.

٣- *السلوة في أخبار كلوة*، وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان، ١٩٨٥م، ص ٥٠-٥٢.

٤- باسيل دافيدسون، *أفريقيا القديمة تكتشف من جديد*، (ترجمة) نبيل بدر وسعد زغلول، (مراجعة) محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص ٧٩.

٥- فارتيما، *رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)*، (ترجمة وتعليق) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٢١٢.

6Journal du voyage de Vasco de Gama dans l'Inde, in *Voyageurs anciens et modernes, ou Choix des relations de voyages les plus intéressantes et les plus instructives*, par : M. Edouard Charton, Tome 3 (Voyageurs modernes, quinzième siècle et commencement du seizième), éd. Bureaux du magasin pittoresque, Paris, 1861, p. 233.

7- Castanheda, *History of the Discovery and Conquest of India by the Portuguese, between the year 1497 and 1505*, Vol. 2, Chap. 6, Section 2a, en ligne: http://www.columbia.edu/itc/mealac/pritchett/00generallinks/kerr/vol02chap06sect01.html

يذكر المؤرخ الإسباني مارمول كاربخال- الذي ألف مصنفه حوالي منتصف القرن ١٦م- أن موزمبيق بنيت فوق جرف عظيم كالصرح، وهي تشبه إلى حد كبير الجزيرة، كما أنها كانت تثير انتباه البحارة من مسافة بعيدة. وقد أنشأ البرتغاليون بالمدينة قلعة ومستودعا للبضائع وذلك عام ١٥٠٨م. أنظر: *أفريقيا*، (ترجمه عن الفرنسية) محمد حجي (وآخرون)، الجزء الثالث، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٨م، ص ٢٥١.

8- Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.

9- D. Barbosa, *A Description of the coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the sixteenth century*, Notes and a preface by Baron Henry Stanley, London, 1866, p. 10.

10 - Chroniques de João de Barros, Damião de Goes, Gaspar Correa, Garcia de Resende, in *Les grands navigateurs et colons portugais du XVe siècle et du XVIe siècle,* vol. 3, Anthologie des écrits de l'époque par Virginia de Castro E Almeida, éd. L. Desmet-Verteneuil, Bruxelles, 1939, p. 85.

١١ - يقول ياقوت إن سوفالة (يسميها سفالة) هي آخر مدينة كبيرة بأرض الزنج، وقد اشتهرت بتجارة الذهب. أنظر: ياقوت، *معجم البلدان*، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ٣/٢٢٤. بينما يذكر كاربخال أن سوفالة بلاد شاسعة الأطراف، وأن البرتغاليين كانوا يلقبون ملكها "بإمبراطور الذهب"، نظرا لكثرة ما يملكه من هذا المعدن النفيس. ويضيف هذا المؤرخ أن العرب- القادمين من مقديشو- هم من بنوا مدينة سوفالة، وذلك بعد حصولهم

على موافقة من ملك المنطقة، الذي كان يعلم أن هؤلاء العرب هم المسيطرون على تجارة البحار، وهو الأمر الذي كان سيجلب لبلاده مزيدا من الأهمية التجارية. أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٣٩، ٢٤٦.

12 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 6.

١٣- عند حديثه عن كلوة اكتفى ياقوت بالقول إنها مدينة من أرض الزنج. أنظر: ياقوت، *المصدر السابق*، ٤٧٨/٤. أما ابن بطوطة فيذكر أن كلوة مدينة ساحلية عظيمة، وأنها من أحسن المدن وأتقنها عمارة. أنظر: *رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"* ، (قدم له وحققه) عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧، ١٢١/٢.

14- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 10.

15- Chroniques de Damião de Goes, João de Barros, Gaspar Correa (Débuts du commerce et de la domination des mers en Orient), in *Les grands navigateurs et colons portugais du XVe siècle et du XVIe siècle*, vol. 4, Anthologie des écrits de l'époque par Virginia de Castro E Almeida, éd. L. Desmet-Verteneuil, Bruxelles, 1939, p. 72.

١٦- يعرف ياقوت الحموي ممبسة (يسميها منبسة) بأنها مدية كبيرة تقع بأرض الزنج، وإليها تأتي المراكب من كل مكان. أنظر: يقوت، *المصدر* السابق، ٢٠٧/٥. بينما يصفها ابن بطوطة (يسميها منبسى) بأنها جزيرة كبيرة، بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر. أنظر: *الرحلة*، ١٢٠/٢. أما كاربخال فيذكر أن المدينة مبنية في شبه جزيرة يبلغ محيط دائرتها أربعة فراسخ، وقد مدت إليها قناة مما جعلها محاطة بالماء من كل جانب. وبناء المدينة جيد، أما الأبراج والبيوت والطرقات فتعطي لمن يشاهدها انطباعا بالفخامة والجمال. أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٦٣.

17 -*Chroniques*, vol. 3, p. 91 *; Journal du voyage*, p. 239.

18 -Vasco de Gama, *La relation du premier voyage aux Indes (1497-1499)*, éditions Chandeigne, Paris, 1998, p. 62.

19 -*Chroniques*, vol. 3, p. 90.

20 -*Journal du voyage*, p. 240; Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 68; Gaspar Correa, *The Three Voyages of Vasco da Gama and his Viceroyality, From the Lendas da India of Gaspar Correa*, translated from the Portuguese with notes and an introduction by Hon. Henry Stanley, Printed for the Hakluyt Society, London, 1869, p. 109-110; D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 12.

21 -Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 68.

22 -*Chroniques*, vol. 3, p. 93.

23 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 110-111.

24- تعد مدينة باتي من أهم المدن السواحيلية، وقد بلغت أوج عظمتها وازدهارها خلال القرن ٨هـ/١٤م تحت حكم الأسرة النبهانية، إذ إنها تمكنت آنذاك من أن تبسط نفوذها وهيمنتها على العديد من المدن الساحلية. أنظر: M. Pearson, *Port Cities and Intruders*, The Johns Hopkins University Press, London, 1998, 43.

25 -*Journal du voyage*, p. 261-262.

26 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 15.

٢٧- وصف فارتيما برافا بأنها جزيرة حصينة جدا. أنظر: *رحلات فارتيما*، ص ٢٠٩. ويذكر المؤرخ كاربخال أن مدينة برافا تقع على الساحل شرقي لامو، وهي أكثر أهمية من لامو سواء من حيث عدد السكان أو كثرة وجودة البناءات. وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء عليها عام ١٥٠٦م. أنظر: كاربخال، *المصدر* السابق، ص ٢٦٩.

٢٨ - تقع مدينة لامو على الساحل شرقي أوكا بحوالي خمسة عشر فرسخا (الفرسخ يساوي ثلاثة أميال أو ستة بحسب ابن منظور في لسان العرب). وقد كانت تلك المدينة تحت حكم أحد الشيوخ العرب، ثم استطاع

البرتغاليون مهاجمتها والاستيلاء عليها عام ١٥٠٦م. أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٦٨.

29 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 15.

٣٠- تقع مدينة مقديشو في أول بلاد الزنج، في جنوب اليمن في بر البربر. وهي مدينة ساحلية وأهلها سود يشبهون الزنوج. أنظر: ياقوت، *المصدر* السابق، ١٧٣/٥. كما أشار ابن بطوطة في رحلته إلى مقديشو (يسميها مقدشُو) بأنها مدينة متناهية في الكبر، وأهلها تجار أقوياء، وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها، والتي لا نظير لها، ومنها تحمل إلى مصر وغيرها من البلدان. أنظر: *الرحلة*، ١١٥/٢. أما كاربخال فيذكر أن مدينة مقديشو أسسها أقوام من العرب القادمين على متن ثلاثة مراكب من الخليج العربي، وأن تلك المدينة قد شهدت تطورا كبيرا بمرور الوقت؛ فارتفع عدد سكانها وازدهر عمرانها "إلى أن أصبحت أم القرى بالنسبة لجموع المسلمين القاطنين بهذا الشاطئ". أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٣٣.

31- *Journal du voyage*, p. 261 ; Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 114.

32- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 16.

33- *Chroniques*, vol. 4, p. 59.

وصف ياقوت بربرة بأنها بلاد تقع بين بلاد الحبش والزنج واليمن على ساحل بحر اليمن. وأهلها سود، ويعتمدون في معيشتهم على صيد الوحوش، كما يوجد لديهم العنبر. أنظر: ياقوت، *المصدر السابق*، ٣٦٩/١-٣٧٠.

34- Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.

35- *Chroniques*, vol. 4, p. 72.

36- Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 53-54.

37- *Journal du voyage*, p. 237.

٣٨ - عند حديثه عن مقديشو وأهلها أشار ابن بطوطة إلى أن السكان في حروب مستمرة مع كفار الزنوج، وأن سلطان المدينة- أبو المظفر حسن- كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج، واستطاع أن يتحصل منهم على غنائم كثيرة "فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعنية في كتاب الله تعالى". أنظر: *الرحلة*، ١٢١/٢-١٢٢.

39 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 12.

40- *Le second voyage de Vasco de Gama à Calicut, relation flamande éditée vers MDIV*, reproduite avec une traduction et une introduction par J. PH. Berjeau, Paris, 1881, p. 47.

41- *Ibid*.

42- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 15.

43- Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 80, 84, 98; Castanheda, *Op. cit.*, Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.

يقول ابن بطوطة إنه كان من عادة أهل مقديشو أن يقولوا للسلطان "الشيخ"؛ لذلك كانوا يلقبون حاكم المدينة آنذاك بالشيخ عمر. أنظر: *الرحلة*، ١١٥/٢-١١٦.

44- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 15.

45- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 16.

٤٦- كانت مدينة كلوة تحكم منذ منتصف القرن ٤ هـ/١٠م بواسطة أسرة الحسن بن علي الشيرازي، إلا أنه مع نهاية القرن ٧هـ/١٣م حلت الأسرة المهدلية العربية في حكم كلوة، وقد ظل المهدليون في الحكم حتى وصول البرتغاليين للمدينة أواخر القرن ٩هـ/١٥م. أنظر:

W. Page, *Encyclopedia of African history and culture*, vol. II « African Kingdoms (500 to 1500), Facts on file, New York, 2005, p. 20.

٤٧- يؤكد المؤرخ الإسباني كاربخال هذا الأمر بقوله إن ملوك كلوة كانوا يعينون الولاة على سوفالة، وكان من ضمن اختصاصات هؤلاء الولاة الإشراف على الحركة التجارية وتنظيمها داخل المدينة. أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ٢٤٦-٢٤٧.

48- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 11.

في الحقيقة يعد القرنان ١٢م و١٣م/٦هـ و٧هـ هما العصر الذهبي لسلطنة كلوة؛ فقد تمكنت المدينة آنذاك من احراز تفوقا ملحوظا- على المستويين السياسي والاقتصادي- على امتداد الساحل الأفريقي. ولا شك أن مما ساعد كلوة على تحقيق هذا التفوق هو أن هذه المدينة كانت هي المركز والمستقر الرئيسي للأسرة الشيرازية الحاكمة في العديد من المدن الساحلية، بالإضافة إلى موقع المدينة المتوسط بين المدن الأخرى، وهو الأمر الذي منحها أهمية تجارية من الدرجة الأولى. وإذا كان القرن ١٤م/٨هـ قد شهد تفوقا لمدينة باتي على الساحل، وذلك تحت حكم الأسرة النبهانية، فإن كلوة سرعان ما عادت مرة أخرى خلال القرن ١٥م/٩هـ لتفرض تفوقها وهيمنتها بوصفها المدينة الأكثر ازدهارا على الساحل. أنظر: ترمنجهام، *الإسلام في شرق أفريقيا*، (ترجمة وتعليق) محمد عاطف النواوي، (راجعه) فؤاد محمد شبل، مكتبة الأنجلو المصرية-القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م، ص ١٣؛ حسن أحمد محمود، *الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا*، مكتبة المتنبي- الدمام، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص ٤٦٢-٤٦٣.

49- Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 95.
50- *Le second voyage de Vasco*, p. 49.
51- *Chroniques*, vol. 4, p. 129.
52- *Ibid*.
٥٣- كان حاكم كلوة يقيم في قصر كبير تحرسه الأبراج، ويحيط به خندق مليء بالماء، ولهذا القصر بابان أحدهما يطل على البحر، والآخر يطل على الخليج الذي ترسي به المراكب. أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٥٢.

54 -*Le second voyage de Vasco*, p. 49.
55 -*Le second voyage de Vasco*, p. 49-51.
56 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 11.
٥٧ - في الواقع، مع نهاية القرن ١٥م/٩هـ بدأ الضعف والتدهور يتسرب لمدينة كلوة التي كانت تفرض سيطرتها على الساحل حتى ذلك الوقت، ولعل سبب ذلك يكمن في الصراعات المستمرة التي نشأت بين أفراد الأسرة الحاكمة سعياً وراء اعتلاء كرسي الحكم، وهو الأمر الذي أفقد المدينة قوتها مما منح الفرصة للعديد من المدن للخروج عن تبعيتها. هذا الأمر أتاح الفرصة لمدينة ممبسة كي تتبوأ مكان الصدارة، وترث الازدهار والتفوق الذي كانت تمارسه كلوة، وهو الأمر الذي جعل البرتغاليين يعتبرون ممبسة المدينة الأكثر ازدهارا على الساحل. أنظر:
M. Pearson, *Port Op. cit.*, 43; F. Chami, « Kilwa and the Swahili Towns », in *Knowledge, renewal and religion*, Nordiska Afrikainstitutet, Uppsala 2009, p. 39.
58 -*Journal du voyage*, p. 239.
59 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 12.
60 -*Journal du voyage*, p. 240 ; *Chroniques*, vol. 3, p. 93.
يرى بعض الباحثين أن السبب في العلاقات الودية التي ربطت حاكم ماليندي بالبرتغاليين إنما تعود في المقام الأول إلى العداء المستحكم بينه وبين صاحب ممبسة؛ لذلك سعى هذا الحاكم إلى التحالف مع البرتغاليين من أجل مساعدته في التفوق العسكري على عدوه اللدود. جدير بالذكر أن صاحب ماليندي حاول في عام ١٥٠٠م الاستعانة بالقائد البرتغالي كابرال لمواجهة ملك ممبسة، الذي كان أكثر منه عددا وعدة، والذي كان سيسعى للانتقام منه نظرا لتحالفه وولائه للبرتغاليين. لكن كابرال الذي كان يضع مصلحة المشروع البرتغالي فوق كل اعتبار لم يستجب له ولم يطل اقامته بماليندي وتوجه مباشرة إلى السواحل الهندية. أنظر: جيان، *وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية من أفريقية الشرقية*، (ترجمة) يوسف كمال، القاهرة، ١٩٢٧م، ص ٢١٢؛
Ch. de Silva, « Indian Ocean but not African Sea: The Erasure of East African Commerce from History », in *Journal of Black Studies*, Vol. 29, No. 5, 1999, p. 686.
61 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 124.
62 -*Chroniques*, vol. 3, p. 93-94, 100 ; Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 111.

63 -*Chroniques*, vol. 3, p. 101.
64 -*Ibid*.
65 -*Chroniques*, vol. 3, p. 99.
66 -*Chroniques*, vol. 4, p. ٧٤.
67 -*Chroniques*, vol. 3, p. 86-87.
68 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 85-86.
69 -Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.
كان ابن بطوطة قد ذكر لنا في رحلته طقوسا واحتفالات مشابهة كانت تتم في مدينة مقديشو؛ إذ إن السلطان عمر لما خرج من المسجد- بعد آداء صلاة الجمعة- متوجها إلى قصره، ضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار، "وأمراء الأجناد أمامه وخلفه، والقاضي والفقهاء والشرفاء معه". أنظر: *الرحلة*، ١١٨/٢.
70 -*Chroniques*, vol. 3, p. 101.
71 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 113.
72 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 288.
73 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 295-297.
في الواقع كان القائد فاسكو دي جاما- في رحلته الثانية عام ١٥٠٢م- يرى أن سياسة الدخول في علاقات صداقة وسلام مع حكام الساحل لن تدر للبرتغاليين ربحا كافيا لتغطية نفقات الأساطيل المتوجهة من لشبونة إلى منطقة المحيط الهندي، لذلك فإنه كان يعتقد أن على البرتغاليين السعي إلى نهب السفن التجارية التي تقابلهم، خاصة تلك التي كانت ملكا للتجار المسلمين، بالإضافة إلى فرض جزية وضريبة على حكام المدن الساحلية. من هذا المنطلق وجدناه يطلب من حاكم كلوة دفع تلك الضريبة للبرتغاليين تحت ستار ومسمى "الصداقة والأخوة". أنظر:
M. Newitt, *A History of Portuguese Overseas Expansion*, *1400-1668*, Routledge, London, 2005, p. 63.
74 -Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 48.
75 -*Chroniques*, vol. 3, p. 82.
76 -Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.
77 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 12, 15-16 ; Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 114.
78 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 84.
79 -Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 59-60.
80 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 136.
81 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 11.
يقول ابن بطوطة إن سكان مقديشو كان يغلب عليهم الدين والصلاح، وأنهم شافعية المذهب. كما ذكر أن هؤلاء السكان كانوا دائما في جهاد ضد الزنوج الوثنيين، كما أن سلطان المدينة عرف بتواضعه الشديد وكان "يعظم أهل الدين والشرف". وعند حديثه عن سكان ممبسة يذكر أنهم أهل دين وصلاح وعفاف. أنظر: *الرحلة*، ١٢٠/٢، ١٢١-١٢٢.
82 -Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 48.
في الواقع انتشرت اللغة العربية في أفريقيا على امتداد الطرق التجارية، وكان ذلك بالتزامن مع انتشار الإسلام في المنطقة. وقد تعايشت اللغة العربية مع اللغات واللهجات المحلية، وفي بعض المناطق حدث امتزاج واختلاط بين هذه اللغات مع العربية لتشكل لنا لهجات جديدة، ومن أمثلة ذلك اللغة السواحيلية التي كان يتحدث بها سكان المدن التجارية على طول الساحل الشرقي لأفريقيا بدءا من القرن ٦هـ/١٢م أو ٧هـ/١٣م؛ فالسواحيلية لها بنية البانتو (اللغة الأفريقية المحلية) ولكنها تستعير كثيرا من المفردات العربية. أنظر: W. Page, *Op. cit.*, p. 16-17.
وفي الحقيقة هذا الأمر لم يكن مستغربا، فقد كان من الطبيعي أن يقوم المهاجرون المسلمون إلى شرق أفريقيا بنقل ثقافتهم ولغتهم معهم، إضافة إلى عاداتهم وتقاليدهم؛ فاختلط السكان المحليون الأفارقة بهؤلاء المسلمين

وتأثروا بهم؛ فأخذوا عنهم ديانتهم ونقلوا إلى لغتهم الكثير من المفردات العربية، فظهر ما يعرف باللغة السواحيلية. أنظر: حسن أحمد محمود، *المرجع السابق*، ص ٤٧٥.

وكان ابن بطوطة قد أشار إلى أنه عندما التقى هو وقاضي المدينة بسلطان مقديشو- بعد الانتهاء من الصلاة بالمسجد- فإن هذا السلطان تحدث مع القاضي بلسانهم (أي بلهجتهم المحلية، التي من المحتمل أن تكون السواحيلية)، ثم تحدث بعد ذلك مع ابن بطوطة مرحبا به باللسان العربي. أنظر: *الرحلة*، ١١٧/٢.

وبناء على ذلك، ونظرا لتشابه اللغة السواحيلية- التي كان يتحدث بها سكان الساحل- إلى حد كبير مع اللغة العربية، فضلا عن وجود جالية كبيرة من عرب الجزيرة الذين كانوا يتحدثون بلغتهم- ربما يكون المؤرخون البرتغاليون قد خلطوا بين هاتين اللغتين وظنوا أن العربية هي لغة التخاطب الرسمية بين السواحيليين.

83 -*Chroniques*, vol. 3, p. 82.
84 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 11, 16.
85 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 5.
86 -*Chroniques*, vol. 4, p. 73.
87 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 289.
88 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 297.
89 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 11.
90 -Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.
91 -*Chroniques*, vol. 4, p. 72.
92 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 11; *Chroniques*, vol. 4, p. 71, 73.
93 -*Journal du voyage*, p. 240.
94 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 12.
95 -Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.

٩٦- أشاد كاربخال بسكان سوفالة، قائلا إنهم كانوا يتميزون ويتفوقون على إخوانهم السود الموجودين بموزمبيق وكلوة وماليندي "بما آتوا من ذكاء فائق ومهارة بالغة". أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٤٢.

97- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 5.

٩٨- تقع كمباي- أو كنباية وكنبايت كما يسميها ابن بطوطة- على الساحل الجنوبي لبلاد الكوجرات الهندية، ويصفها ابن بطوطة بأنها "على خور من البحر، وهو شبه الوادي، تدخله المراكب وبه المد والجزر... وهذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد، وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء. فهم أبدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة، ويتنافسون في ذلك". أنظر: *الرحلة*، ٢٧/٤-٢٨.

99- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 6.
100- *Chroniques*, vol. 3, p. 82, 86.
101- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 16.
102- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 10; *Chroniques*, vol. 4, p. 72.
103- *Chroniques*, vol. 3, p. 90.
104- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 11.
105- *Ibid*.
106- *Chroniques*, vol. 3, p. 93 ; D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 12.
107- Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 292.
108- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 15.
109- Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.
110- *Chroniques*, vol. 3, p. 82.
111- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 6.

كان ابن بطوطة قد أشار في رحلته إلى أن الطعام الرئيس لأهل مقديشو هو الأرز المطبوخ بالسمن "يجعلونه في صحفة خشب كبيرة"، ثم يضيفون فوقه الإدام من الدجاج واللحم والأسماك والبقول. وذكر أثناء حديثه عن ممبسة أن أكثر طعامهم الموز والسمك. أنظر: *الرحلة*، ١١٦/٢، ١٢٠.

112- *Chroniques*, vol. 4, p. 72.

113- *Chroniques*, vol. 4, p. 73.

وقد أشار كاربخال إلى أن أهل برافا لما أرادوا الدفاع عن مدينتهم ضد الهجوم البرتغالي عام ١٥٠٦م، فإنهم كانوا يستخدمون السهام والنبال والرمي بالأحجار. كما أنه يذكر أن جنود وحامية سوفالة كلهم من المشاة ولا يوجد فرسان، لأنه لا يوجد لديهم خيول، وأن أسلحتهم تتكون من الأقواس والنبال والرماح والخناجر وسواطير صغيرة حادة للغاية. أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٤٥، ٢٦٩.

114- *Chroniques*, vol. 3, p. 90.

115- *Journal du voyage*, p. 237.

116- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 16.

117- Teixeira, *The Travels of Pedro Teixeira, with his "Kings of Harmuz"*, Translated and annotated by William F. Sinclair, London, 1902, p. 6.

وقد أكد كاربخال خطورة تلك السهام قائلا إن البرتغاليين بقيادة دالميدا عندما أرادوا مهاجمة عدد من السفن التي كانت ترسو بميناء ممبسة وإشعال النيران فيها تفاجئوا بحامية المدينة وهي تقذفهم بمائة سهم، "فرجعوا خائبين دون القيام بأي عمل، ومات منهم بعض الذين جرحوا بسهام مسمومة". أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٦٥.

118- *Journal du voyage*, p. 242.

119- Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 82.

120- *Chroniques*, vol. 3, p. 82 ; *Chroniques*, vol. 4, p. 108.

في الواقع كانت شهرة ساحل سوفالة بإنتاج وتجارة الذهب معروفة حتى قبل قدوم البرتغاليين للمنطقة بزمن طويل، وقد ذكر الجغرافيون العرب هذا الأمر صراحة في مصنفاتهم؛ فالمسعودي- على سبيل المثال- يشير إلى ذلك قائلا: "فسكنت الزنج في هذا الصقع، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة، وهي أقصى بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين ... وهي أرض كثيرة الذهب، كثيرة العجائب، خصبة حارة". أنظر: *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، الناشر شركة القدس للتصدير، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ١٠٠/٢.

121- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 4.

122- *Chroniques*, vol. 4, p. 71.

١٢٣- يذكر جاسبار كوريا أن القائد الفاريز كابرال كانت لديه معلومات كثيرة عن سوفالة وعن وفرة الذهب بها، وأن المرشدين والملاحين الذين تحصل عليهم كابرال من حاكم ماليندي- لإرشاد الأسطول البرتغالي وإيصاله إلى لشبونة- قد تحدثوا معه مرارا عن ثراء هذا الساحل وتجارته المزدهرة. هذا بالإضافة إلى حديث شيخ موزمبيق مع كابرال عن هذا الأمر. أنظر:

*Chroniques*, vol. 4, p. 108.

124 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 286; *Chroniques*, vol. 4, p. 108.

حقيقة الأمر كانت لدى الملك البرتغالي دوم مانويل رغبة أكيدة في احتكار تجارة الذهب في سوفالة وكلوة؛ لذلك فإنه جهز أسطولا كبيرا عام ٩١٠هـ/١٥٠٥م بقيادة بدرو دي انهايا Pero de Anhaia وأرسله باتجاه الساحل الأفريقي. ففي نظر الملك كانت هاتان المدينتان معدتان ومجهزتان على الساحل الشرقي لأفريقيا لتماثل مصنع الذهب الملكي في المينا *Elmina* (وهي مدينة تقع على ساحل عانا، التي كانت تسمى بساحل الذهب). أنظر: M. Newitt, *Op. cit.*, p. 68

١٢٥- الريس *reis* كانت عملة برتغالية ذائعة الصيت في العصر الوسيط، وإذا ما قورنت قيمتها بالعملات الذهبية والفضية آنذاك، فإن *Cruzado* ذهبي واحد كان يساوي ٦٨٠ ريس، أما العملة الفضية *espero* فإن الواحد منها كان يساوي ٤٠ ريس، علما بأن هاتين العملتين الذهبية والفضية- الكروزادو والاسبيرو- هي التي قام بسكها القائد البرتغالي ألفونسو البوكيرك في مدينة جوا الهندية. أنظر:

J. Gerson da Cunha, *Contributions to the Study of Indo-Portuguese Numismatics*, Printed at the Education Society Press, Byculla, 1883, p. 21.
126 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 287.
127 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 289.
128 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 299.
129 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 98.
130 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 11.
131 -Vasco de Gama, *Op., cit*., p. 61.
132 -*Chroniques*, vol. 3, p. 91.
133 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 12.
134- يذكر جاسبار كوريا أن تلك المراكب كانت تحمل على ظهرها ٨٠ رجلا، هذا بالإضافة إلى التوابل والبضائع التي كانت تشحن فيها. أنظر: *Chroniques*, vol. 3, p. 83.
135 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 5.
136 -*Journal du voyage*, p. 238.
137 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 97.
138 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 11.
139 -*Chroniques*, vol. 4, p. 71-72.
140 -Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 48.
141 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 84.
يقول فارتيما إن البرتغاليين حصلوا من موزمبيق- بعد استيلائهم عليها- على كميات كبيرة من الذهب والزيت، كما هو الحال مع سوفالة. أنظر: *رحلات فارتيما*، ص ٢١٠.
١٤٢- يذكر كذلك كوريا أن السفن البرتغالية بقيادة كابرال لما قررت الرحيل من موزمبيق باتجاه سوفالة- عام ١٥٠٠م- التحق بهذا الأسطول مجموعة من أعيان التجار بموزمبيق، الذين كانوا يرغبون في الذهاب إلى ساحل سوفالة لبيع بضائعهم التجارية، وكانوا يحملون معهم كميات من الأقمشة الفاخرة القادمة من كمباي، بالإضافة إلى المسابح ذات الحبيبات الحمراء. أنظر:
*Chroniques*, vol. 4, p. 108.
143 -*Chroniques*, vol. 3, p. 82 ; Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.
144 -*Journal du voyage*, p. 240.
145 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 15.
146 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 16.
يذكر ابن بطوطة أن من مقديشو يجلب الصندل والأبنوس والعنبر والعاج، وهذا أكثر أمتعتهم، "وقد يكون عندهم غير ذلك مجلوبا إليهم". أنظر: *الرحلة*، ١٧٣/٥.
147 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 12; Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.
148 -Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 62.
كانت تجارة الحديد- المستخرج من المناطق الداخلية- تتركز في مدن كلوة وممبسة وسوفالة. وقد كان هذا المعدن يمثل أهمية كبيرة لبلاد الهند؛ فبحسب ما كان يقوله التجار العرب آنذاك فإن الهنود كانوا يفضلون الحديد الأفريقي على الحديد الهندي، "وذلك لشدة نقائه واستجابته الطيعة لمراحل التصنيع المختلفة". أنظر: جوان جوزيف، *المرجع السابق*، ص ١٣٩.
149 -*Le second voyage de Vasco*, p. 47.
150 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 5.
151 -*Le second voyage de Vasco*, p. 49 ; D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 4.
يذكر الرحالة فارتيما أنه وأصحابه لما كانوا بنواحي موزمبيق وأرادوا شراء بعض الأبقار والثيران، أخبرهم الدليل الذي كان يرافقهم أنهم ليسوا في حاجة لدفع النقود للشراء، فهؤلاء البائعون لديهم من الذهب والفضة أكثر

مما لدى البرتغاليين، وأنهم يمكن أن يقايضوا تلك الأبقار بعدد من "قطع القماش" التي يستخدمها هؤلاء الأهالي "للفها حول أجسامهم". أنظر: *رحلات فارتيما*، ص ٢١١.

152 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 287, 291; *Chroniques*, vol. 4, p. 109.

١٥٣ - يذكر المؤرخ كاربخال أن العرب- بلا شك- كانوا هم أول الجاليات قدوما لمنطقة الساحل الشرقي لأفريقيا في فجر الإسلام، وأنهم أخذوا ينتشرون على طول هذا الساحل، وبدءوا ينشرون الدين الإسلامي في هذه المنطقة، التي كان يقطنها "شعوب همجية ووثنية"؛ فأقاموا بينهم سلميا وعمروا الجزر والمراكز والمدن على طول الساحل ليصبحوا سادة البحار. أنظر: كاربخال، *المصدر* السابق، ص ٢٣٣، ٢٦١.

من ناحية أخرى، أصبح الساحل الشرقي لأفريقيا مركزا مهما في تجارة الشرق الأوسط، خاصة في فترة الهيمنة العربية على التجارة وطرقها البحرية؛ إذ زادت وازدهرت التجارة بين شرق أفريقيا من ناحية، والجزيرة العربية والخليج العربي من ناحية أخرى، كما اتجه الكثير من التجار العرب للاستقرار والإقامة بين السكان المحليين في معظم المدن التجارية الساحلية. أنظر:

W. Page, *Op. cit.*, p. 15.

وتجدر الاشارة إلى أن الوجود المكثف للجاليات الإسلامية داخل مدن الساحل الأفريقي جعل البرتغاليين ينظرون إلى تلك المنطقة باعتبارها جزءا من العالم الإسلامي- العدو الأول بالنسبة لهم- أكثر من نظرتهم إليها باعتبارها جزءا من القارة الأفريقية؛ ولعل من آثار هذا الأمر هو اختلاف التسمية التي أطلقها البرتغاليون على سكان الساحل والداخل؛ ففي حين نعتوا أهالي المناطق الداخلية باسم الكفار *Kaffirs*، نجدهم يصفون سكان المدن الساحلية بلفظة *Maures*، وهو الاسم نفسه الذي كانوا يلقبون به سكان الشرق الإسلامي. أنظر: Ch. de Silva, *Op. cit.*, p. 688.

154 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 86.

155 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 288.

156 -*Chroniques*, vol. 3, p. 82.

157 -*Journal du voyage*, p. 234 ; Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 48.

158 -*Journal du voyage*, p. 234.

159 -Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.

160 -*Journal du voyage*, p. 234.

161 -Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 131-132; *Chroniques*, vol. 4, p. 73-74.

162 -Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.

163 -*Chroniques*, vol. 3, p. 82.

164 -*Chroniques*, vol. 4, p. 73.

لا شك أن التجار العرب كانوا يتبوؤون مكانة مرموقة داخل مدن الساحل؛ من أمثلة ذلك ما يذكره المؤرخ كاربخال الذي يقول إنه كان من العادات داخل بلاط حاكم سوفالة أن الملك عندما يخاطب زواره فعليهم أن يظلوا واقفين حتى يأذن لهم بالمغادرة، إلا أن العرب المقيمين بالمدينة كانوا مستثنين من هذا الأمر، "ويعد ذلك من علائم التكريم والتشريف الواجبة في حقهم". أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٤٤.

165 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 5.

166 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 13.

167 -Tome Pires, *The suma oriental of Tome Pires: un account of the East, from the Red Sea to Japan, Written in Malacca and India in 1512-1515, and the book of Francisco Prodrigues*, Translated from the Portuguese MS in the bibliothèque de la chamber des Députés Paris, and edited by Armando Cartesao, Vol. 1, London, 1944, p. 14.

168 -*Chroniques*, vol. 3, p. 173.

169 -D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 16.

١٧٠- يصف ابن بطوطة مدينة قاليقوط بأنها "إحدى البنادر العظام ببلاد الملیبار"، ويقصدها أهل الصين

والجاوة وسيلان وأهل اليمن وفارس، ويجتمع بها تجار قادمون من جميع البلدان. ويضيف ابن بطوطة أنه مما ساعد على الازدهار التجاري لتلك المدينة هو امتلاكها مرسي "من أعظم مراسي الدنيا". أنظر: *الرحلة*، ٤٤/٥-٤٥.

١٧١- عرف حكام مدينة قاليقوط بلقب *Zamorin*، وهذه الكلمة مأخوذة من *Zamoudriya râjah* والتي تعني ملك الساحل أو ملك المحيط. أنظر:

A. Kammerer, La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité, IFAO, Le Caire, 1928-1952, 2/ 22.

172- *Chroniques*, vol. 4, p. 59-62

173- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 5.

174- *Ibid*.

175- *Chroniques*, vol. 3, p. 103.

176- Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.

177- *Chroniques*, vol. 3, p. 102.

١٧٨- يذهب تشيتيك إلى القول بإن التجار الهنود على الساحل الشرقي لأفريقيا بصفة عامة قد حافظوا على أن تكون لغتهم هي لغة الخطاب الرئيسة فيما بينهم، من هذا المنطلق فإن اللغة السواحيلية لم تستعر من اللغة الهندية سوى بعض الكلمات القليلة؛ بحيث إنه لا يمكن مقارنتها مع اللغة العربية وتأثيرها الكبير في اللغة السواحيلية. وحتى تلك الكلمات الهندية القليلة كانت معروفة لدى العرب القادمين من البلدان العربية وذلك بحكم علاقاتهم التجارية الوثيقة مع سكان الساحل الغربي لبلاد الهند. وعلى هذا فلا يستبعد أن تكون تلك الألفاظ الهندية قد دخلت إلى السواحيلية عن طريق هؤلاء التجار العرب. أنظر:

N. Chittick, « Indian relations with East Africa before the arrival of the Portuguese », in *Journal of the Royal Asiatic Society* (New Series), No. 112, 1980, p. 125.

179 Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 66-67.

١٨٠- الكوجرات أو الجزرات هو إقليم كبير من بلاد الهند يضم العديد من البلاد والمدن، منها نهلوارة وكنبايت (كمباي) وتانة وصومنان وسندان وغيرها. وقد كان هذا الإقليم على حظ بالغ من الثراء بسبب ما كان قائما بينه وبين شواطئ المحيط الهندي الأخرى من صلات تجارية وملاحية. أنظر: القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، (شرح وتعليق) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، (د.ت)، ٦٧/٥-٧٠.

181- *Chroniques*, vol. 4, p. 107.

182- Tome Pires, *Op. cit.*, p. 46.

183- Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 62.

وصف كاربخال ميناء ممبسة بأنه واسع وملائم لاستقبال السفن الكبيرة. كما يذكر أنه بالداخل كانت توجد قناة من السعة ما يسهل تحرك السفن الشراعية عند محاولاتها للدوران مع الرياح. وفي وسط هذا النطاق يمتد نحو الأرض رصيف من الأحجار يساعد على الانتقال من جهة إلى أخرى عند انحسار المياه مع الجزر، "وبالإضافة إلى هذه القناة هنالك قنوات أخرى تخترق الأرض وتصلح لملاحة". أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ٢٦٣/٣.

184- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 12.

185- Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.

186- *Chroniques*, vol. 3, p. 91 ; Vasco de Gama, *Op., cit*., p. 62.

187- Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.

188- *Chroniques*, vol. 3, p. 82.

189- Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 80.

190- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 10.

191- Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 292.

192- *Chroniques*, vol. 4, p. 108.

193- *Chroniques*, vol. 4, p. 59.
194- Castanheda, *Op. cit.,* Vol. 2, Chap. 6, Section 2a.
195- *Chroniques*, vol. 3, p. 94-95.
196- F. Masao, « La côte d'Afrique orientale et les Comores », in *Histoire générale de l'Afrique*, vol. III, Unesco, Paris, 1990, p. ٦٤٨.
197 *Le second voyage de Vasco*, p. 51 ; *Chroniques*, vol. 4, p. 72.
أشار كاربخال إلى أن كلوة تقع في منطقة فلاحية خصبة، وهي غنية بفواكهها المتنوعة، وبإنتاجها الزراعي وبأنعامها ودواجنها؛ كالدجاج والحمام وغيرها من الطيور. أنظر: كاربخال، *المصدر السابق*، ص ٢٥١.
198- D. Barbosa, *Op., cit*, p. 12.
أشار ابن بطوطة إلى أن ممبسة يكثر بها أشجار الموز والليمون والأترج. أنظر: *الرحلة*، ١٢٠/٢.
199- *Chroniques*, vol. 3, p. 90.
200- Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 60.
201- Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 68.
202- Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 110; Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 115.
203- Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 115 ; D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 13.
204- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 16.
205- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 6.
206- Vasco de Gama, *Op. cit.*, p. 51.
207- *Ibid*.
208- D. Barbosa, *Op. cit.*, p. 10.
209- Gaspar Correa, *Op. cit.*, p. 88.
210- *Chroniques*, vol. 4, p. 70.

## مصادر البحث

**Barbosa (Duarte),** *A Description of the coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the sixteenth century*, Notes and a preface by Baron Henry Stanley, London, 1866.

**Castanheda (Harnan Lopez de),** *History of the Discovery and Conquest of India by the Portuguese, between the year 1497 and 1505*, Vol. 2, Chap. 6, Section 2a, en ligne: http://www.columbia.edu/itc/mealac/pritchett/00generallinks/kerr/vol02chap06sect01.html

**Chroniques de Damião de Goes, João de Barros, Gaspar Correa** (Débuts du commerce et de la domination des mers en Orient), in *Les grands navigateurs et colons portugais du XVe siècle et du XVIe siècle*, vol. 4, Anthologie des écrits de l'époque par Virginia de Castro E Almeida, éd. L. Desmet-Verteneuil, Bruxelles, 1939.

**Chroniques de João de Barros, Damião de Goes, Gaspar Correa, Garcia de Resende** (La découverte de l'Inde par Vasco de Gama), in *Les grands navigateurs et colons portugais du XVe siècle et du XVIe siècle,* vol. 3, Anthologie des écrits de l'époque par Virginia de Castro E Almeida, éd. L. Desmet-Verteneuil, Bruxelles, 1939.

**Correa (Gaspar),** *The Three Voyages of Vasco da Gama and his Viceroyality, From the Lendas da India of Gaspar Correa*, translated from the Portuguese with notes and an introduction by Hon. Henry Stanley, Printed for the Hakluyt Society, London, 1869.

**Journal du voyage de Vasco de Gama dans l'Inde**, in *Voyageurs anciens et modernes, ou Choix des relations de voyages les plus intéressantes et les plus instructives*, par : M. Edouard Charton, Tome 3 (Voyageurs modernes, quinzième siècle et commencement du seizième), éd. Bureaux du magasin pittoresque, Paris, 1861, pp. 219-265.

***Le second voyage de Vasco de Gama à Calicut, relation flamande éditée vers MDIV***, reproduite avec une traduction et une introduction par J. PH. Berjeau, Paris, 1881.

**Teixeira (Pedro),** *The Travels of Pedro Teixeira, with his "Kings of Harmuz"*, Translated and annotated by William F. Sinclair, London, 1902.

**Tome Pires**, *The suma oriental of Tome Pires: un account of the East, from the Red Sea to Japan, Written in Malacca and India in 1512-1515, and the book of Francisco Prodrigues*, Translated from the Portuguese MS in the bibliothèque de la chamber

des Députés Paris, and edited by Armando Cartesao, Vol. 1, London, 1944.

**Vasco de Gama**, *La relation du premier voyage aux Indes (1497-1499)*, éditions Chandeigne, Paris, 1998.

## المصادر والمراجع المساعدة

**أولا: المصادر والمراجع العربية والمعربة:**

**ابن بطوطة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي)**، *رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"* ، (حققه وقدم له) عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م.

**ترمنجهام (سنبسر)**، *الإسلام في شرق أفريقيا* ، (ترجمة وتعليق) محمد عاطف النواوي، (راجعه) فؤاد محمد شبل، مكتبة الأنجلو المصرية-القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

**جوزيف (جوان)**، *الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء* ، (ترجمة) مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٤م.

**جيان (المسيو)**، *وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية من أفريقية الشرقية* ، (نقله إلى العربية) يوسف كمال، القاهرة، ١٩٢٧م.

**دافيدسون (باسيل)**، أفريقيا القديمة تكتشف من جديد، (ترجمة) نبيل بدر وسعد زغلول، (مراجعة) محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).

**فارتيما**، *رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)*، (ترجمة وتعليق) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

**القلقشندي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي)**، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا* ، (شرح وتعليق) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، (د.ت).

**كاربخال (مارمول)**، *أفريقيا*، (ترجمه عن الفرنسية) محمد حجي (وآخرون)، الجزء الثالث، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٨م.

**محمود (حسن أحمد)**، *الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا* ، مكتبة المتنبي- الدمام، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

**المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي)**، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، الناشر شركة القدس للتصدير، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

**مؤلف مجهول**، *السلوة في أخبار كلوة* ، وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان، ١٩٨٥م.

**ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله)**، معجم *البلدان*، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

**ثانيا: المراجع الأوربية:**

**Agius (D.),** *Classic ships of Islam from Mesopotamia to the Indian Ocean*, Brill, Boston, 2008.

**Chami (F.),** « Kilwa and the Swahili Towns », in *Knowledge, renewal and religion*, Nordiska Afrikainstitutet, Uppsala 2009.

**Chittick (N.),** « Indian relations with East Africa before the arrival of the Portuguese », in *Journal of the Royal Asiatic Society* (New Series), No. 112, 1980.

**Cunha (J. Gerson da),** *Contributions to the Study of Indo-Portuguese Numismatics*, Printed at the Education Society Press, Byculla, 1883.

**Kammerer (A.),** *La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité*, IFAO, Le Caire, 1928-1952.

**Masao (Fidel)**, « La côte d'Afrique orientale et les Comores », in *Histoire générale de l'Afrique*, vol. III, Unesco, Paris, 1990, (pp. 625-656).

**Newitt (Malyn),** *A History of Portuguese Overseas Expansion*, *1400-1668*, Routledge, London, 2005.

**Page (Willie),** *Encyclopedia of African history and culture*, vol. II « African Kingdoms (500 to 1500), Facts on file, New York, 2005.

**Pearson (M.),** *Port Cities and Intruders*, The Johns Hopkins University Press, London, 1998.

**Silva (Chandra. De),** « Indian Ocean but not African Sea: The Erasure of East African Commerce from History », in *Journal of Black Studies*, Vol. 29, No. 5, 1999.